الأُمَّة العربيّة

في معركة تحقيق الذَّات

الأستاذ: محمد المبارك






مركز الثقافة العربية
Arab Cultural Center



الأستاذ
محمد المبارك

منذ شبابه الباكر انشغل العلامة الأستاذ محمد المبار ك بمحاولة فهم المجتمع العربي عموما والمجتمع السوري خصوصا؛ بهدف إيجاد الحلول العملية لحل مشكلة الصراع الحديث داخل المجتمعات العربية، إذ لا يمكن للعرب أن يبنوا حضارتهم العالمية دون تجاوز الخلافات التي تنخر في جسد الأمة.

والعلامة المبارك يؤمن أن الأمة العربية هي أمة ذات رسالة عالمية، مهمتها أن تنقذ البشرية من الانهيار الأخلاقي والقيمي الذي تنحدر فيه، وأن عماد هذه الرسالة هو الدين الإسلامي. ومن خلال مسيرة المبارك في إعادة بناء الذات العربية المسلمة وتأسيس القاعدة المفاهيمية التي يمكن أن تنطلق منها الأمة العربية لأداء رسالتها العالمية داخل العالم الإسلامي وغير الإسلامي؛ ظهر هذا الكتاب، بعنوان "الأمة العربية في معركة تحقيق الذات".

وهو كتاب غزير مليء بالأفكار الفلسفية والعملية التي ما زالت المجتمعات العربية والمسلمة بحاجة إليها؛ لتحقيق سلامها الداخلي، وبناء حضارتها الذاتية، وأداء رسالتها العالمية، وفي هذا السياق درس المباركُ العربَ قبل الإسلام، وجهودَهم في الإسلام، ومركزيتهم في العالم الإسلامي الحديث، ونشأة القوميات المعاصرة، وأثرها في تمزيق المجتمعات المسلمة، طارحا حلوله لتجاوز هذا الصراع، وبناء الحضارة العربية المسلمة على أسس سليمة تشارك فيها شعوب البلدان العربية باختلاف أديانها وأعراقها واتجاهاتها الإيديولوجية، وتشاركهم فيها الأمم المسلمة باختلاف أعراقها.

مركز الثقافة العربية

للنّشرِ والتّدريبِ والإنتاجِ التّعليميِّ والثّقافيِّ

Arab Cultural Center – Türkiye / Istanbul

arabculturecenter@gmail.com

+90 552 609 20 22

ISBN 978-625-6483-40-8

الأُمَّة العربيَّة

في معركة تحقيق الذَّات

«الأمة العربية في معركة تحقيق الذات»

عدد الصفحات: ١٨٤

الناشر: مركز الثقافة العربية - تركيا / إسطنبول

القياس: ٢١ × ١٤.٥

الطبعة: الأولى، ١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م.

رقم المعيار الدولي: ٨-٤٠-٦٤٨٣-٦٢٥-٩٧٨

ملاحظة: الكتب والدراسات التي ينشرها المركز؛ لا تعبِّر بالضرورة عن رأيه، وإنما تعبِّر عن آراء مؤلفيها واجتهاداتهم.

مركز الثقافة العربية
للنشر والإنتاج التعليمي والثقافي

Arab Cultural Center – Türkiye / Istanbul
E-mail: arabculturecenter@gmail.com

@arab.culturecenter
arab.culturecenter
@arabculturecenter
@arab_culture_ce
@arabculturecenter
+ ٩٠٠٥٢٦٠٩٢٠٢٢

الأُمَّة العربيَّة

في مَعرَكة تَحْقِيق الذَّات

تأليف

الأستاذ: محمد المبارك

يخوض العرب بعد معارك التحرر المادي والمعنوي معركة إثبات الذات،

ويستعدون لبناء الحضارة الإنسانية بما لهم من سابقة وتراث، وقيم خالدة.

مركز الثقافة العربية
Arab Cultural Center

وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا

مقدمة مركز الثقافة العربية

العلامة الأستاذ محمد المبارك، عالم متميز ومفكر إسلامي ناقد، وسياسي بارز من عائلة علمٍ دمشقية شهيرة يعود أصلها إلى الجزائر، وتُنسب إلى آل البيت الحسنيين، وُلد عام (١٩١٢م – ١٣٣١هـ)، وتُوفِّي عام (١٩٨١م – ١٤٠٢هـ).

تميز الأستاذ محمد المبارك بسعة الفكر، والجمع بين الثقافتين الإسلامية والغربية، وجمعه بين أصناف العمل العلمي والاجتماعي والسياسي، ألَّف في السياسة والمجتمع واللغة والفكر الإسلامي والعقيدة، وربَّى العديدَ من الأجيال، وأسهم في تأسيس التعليم في العديد من الدول العربية والإسلامية، قال عنه العلامة الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله: "إن الأستاذ محمدَ المبارك كان يُعدُّ بمفرده وفي ذاته فريقًا من العلماء والدعاة ذوي المواهب المتنوعة، وقد خسر العالم الإسلامي بوفاته خسارةً كبيرة لا أظن أنها تعوض في مئة عام".

وسعيًا من مركز الثقافة العربية في إسطنبول إلى خدمة تراث العلامة الأستاذ محمد المبارك، تم الاتفاق مع أولاده الكرام على تولّي المركز مهمة العناية بتراث الأستاذ المبارك وإعادة نشره؛ ليُسهم بدوره في رفد الساحة المعرفية في العالَمين العربيِّ والإسلامي، لما يحمله تراث الأستاذ من حيوية فكريّةٍ ما زالت الساحة بأمسِّ الحاجة إليها، فما طرحه الأستاذ المبارك في كتبه قبل أكثر من نصف قرن يفوق بدرجات ما شاع في الساحة الإسلامية مؤخراً من إنتاجٍ فكريٍّ وعلميٍّ منكسرٍ نتيجةَ تسلّط الاستبداد السياسي وتعمّقِ الصراع الداخلي.

ومن هنا فإن مركز الثقافة العربية يدعو قراءه الكرام إلى التأمل فيما كتبه الأستاذ المبارك، لما يقدمه من فكرٍ نيِّر يمكن أن يفتح أبوابًا جديدة للإصلاح العلمي والفكري في العالَمين العربي والإسلامي.

محمد علي بن إبراهيم النَّجار
مدير مركز الثقافة العربية في إسطنبول

مقدمة المؤلف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أحمد الله على أنّي ما زلت منذ بضع وعشرين سنة أفكر في موضوع خطير كان يشغل ذهني ويثير تفكيري، وأنا لا أزال يومئذ طالبًا في الجامعة، وهو موضوع (**الأمة العربية ورسالتها**). ولا أزال أحتفظ بمذكرات شخصية كتبتها أيام الدراسة في جامعة باريس أتساءل فيها عن رسالة الأمة العربية، وعن سر اختيار الله لها لأداء رسالة الإسلام.

وقد كتبت يومئذ في تلك المذكرات على هذا السؤال جوابًا، قلت فيه: إن الشعب العربي، بظروفه الاجتماعية الخاصة، أكثر الشعوب استعدادًا لنشر أفكار جديدة في العالم، ولإعطاء التطور العالميّ وجهة جديدة ما كان يمكن أن يتجه نحوها لو سُلمت القيادة لشعب آخر. فإن تركيب المجتمع العربي أكثر ملاءمة لأفكار الديمقراطية، ومبادئ المساواة والكرامة الإنسانية، ذلك أنه تجرد عما علق بالشعوب الأخرى من أفكار أرستقراطية منحرفة، أو أوهام وأساطير.

ثم استمر تفكيري في هذا الموضوع وبحثي، وأعانني على ذلك دافع داخلي، تكون مما لقنني إياه أبي رَحِمَهُ اللَّهُ مذ كنت يافعًا، من أننا هاجرنا من الحجاز فيمن هاجر من أبناء الحسن بن علي، وأقمنا في شتى أنحاء المغرب، إلى أن استقر بنا المطاف في الجزائر، ثم غادرناها مع عدد كبير من سكانها بعد دخول الفرنسيين إليها عقب حرب دامت بضع عشرة سنة، إلى بلد العروبة والإسلام دمشق حيث استقر بنا المقام منذ قرن وربع. وطالما كنت أقلب صفحات الرسائل المتبادلة بين جدي، ومن بقي من أسرته في الجزائر وبينه وبين أخيه الذي هاجر بعد ذلك إلى اليمن، وأتأمل فيما

في تلك الرسائل من أخبار هجرتنا وأجدادنا. لقد بقي كل ذلك كامنًا في النفس، ولكنه كان يدفعني من حيث أشعر أو لا أشعر إلى البحث والتفكير في كثير من الموضوعات دفعًا شديدًا، ويحملني ألوانًا من العواطف والمشاعر.

وكان والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى جانب ذلك راوية من رواة اللغة والأدب والتاريخ. وكان يتحدث عن العرب، ينشد لشعرائهم، ويروي قصص أبطالهم، وينقل طريف أخبارهم، لا ينقطع عن ذلك ولا يفتر طوال يومه.

وكان السامع له يشعر من ثنايا حديثه، ونبرات صوته، وأسارير وجهه، بما في نفسه من حب لهذه البطولات وإعجاب بتلك المفاخر والمكارم. فإذا انتقل إلى ظهور الإسلام، وسنيِّ الدعوة - وكان واسع الرواية في السيرة، يحفظ تفصيلاتها وجزئياتها، وأخبار المغمورين والمشهورين من رجالها - وازنَ وقارنَ، وأشعرك بما فعل الإسلام في هذا الشعب العظيم من أثر عميق، وما نقله إليه من أفق رحيب، وما حققته مبادئ الإسلام وروحه عن طريق هذه المكارم والمفاخر من إنسانية رفيعة وسمو نفسي.

لقد امتزج ذلك كله في نفسي، ووجهني في دراستي إلى أهداف واضحة، وأنار لي السبيل، وجنبني كثيرًا مما وقع في نفوس كثيرين من أمثالي من عقد ومشكلات ترجع إلى تناقضات نفسية أورثتهم إياها بيئتهم.

وفي عام ١٩٤١م بعد عودتي من الدراسة في فرنسا، عنيت ببحث التيارات الفكرية في سورية والبلاد العربية، وألقيت في هذا الموضوع محاضرات متسلسلة على بعض الأساتذة والطلاب الجامعيين ولم يكن قد نشر في ذلك الحين من الأبحاث إلا النزر اليسير. فبحثت التيارات الشعوبية منها، وما وراءها من بواعث خفية، وما ظهرت فيه من أشكال وصيغ؛ والتيار الأصيل، وما اعتراه أحيانًا من

انحراف ناشئ عن مؤثرات خارجية، أو جمود ناجم عما علق به من رواسب عصور الانحطاط في القرون الأخيرة من تاريخنا.

وعنيت بوجه خاص بدراسة نشوء الفكرة العربية في العصر الحديث، والمراحل التي مرت بها، والعوامل التي أثّرت في اتجاهاتها وصيغها، والمفاهيم المتعددة التي فهمت من خلالها، وما كان من تلك العوامل داخليًّا أصيلًا، وما كان دخيلًا عليها أو خارجًا عنها، يتستر وراءها ويختفي تحت عنوانها.

ولكن الظروف لم تعن على نشر تلك الأبحاث التي بقيت راكدة في أوراقها ومصنفاتها، ولكنها كانت دوما مرجعًا أرجع إليه في كثير من المحاضرات التي ألقيتها في مناسبات شتى، في النوادي، وفي الإذاعة السورية، وفي جامعة القاهرة ودمشق.

وكنت أتابع البحث والتفكير في هذا الموضوع وما يتصل به، لا تعوقني المشاغل الخارجية عن متابعته، فتحصل لي من مجموع تلك الأبحاث التي اختمرت في ذهني واعتلجت في نفسي، بعد تجارب شخصية ومطالعات متنوعة، نظرة شاملة واضحة الخطوط في موضوع القومية والإنسانية بوجه عام، وفي تحديد معالم الشخصية العربية وخصائصها وعناصر رسالتها بوجه خاص، جاءت مبرأة من المفاهيم الأجنبية، سليمة من الانحراف عن الجادة العربية القويمة، ذلك الانحراف الذي وقع فيه كثير من دعاة القومية العربية بتأثير الثقافة الأجنبية، أو الظروف الخاصة التي أحاطت بهم، أو البيئة التي ينتمون إليها.

وقد رأيت أن أبدأ بتلخيص هذه المباحث ونشرها موجزة، ريثما يتيح الله لي فرصة بسطها وتفصيلها. فجعلت القسم الأول من الكتاب محتويًا على بحث نظري في القوميات، وتطور البشرية من الوجهة الواقعية، وفي الصلة بين القومية والإنسانية. ثم أتبعت ذلك بتطبيق هذا البحث وطرح مسائله على الصعيد العربي،

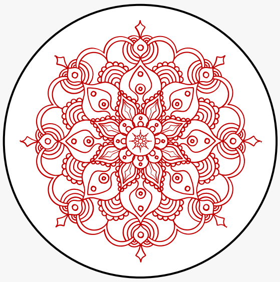
واستعراض تطور الأمة العربية وظهور الوعي القومي فيها، والمراحل التي مر بها، والأشكال السياسية والقوالب الفكرية التي اتخذها، مع نظرة نقدية تحليلية لهذه القوالب والأشكال. وأما القسم الثاني من الكتاب، فقد قدمته بما انتهى إليه بحثي في تحديد اتجاهات الأمة العربية الأصيلة، وعناصر رسالتها الخالدة. وأتبعت ذلك ببعض أبحاث كتبت في الموضوع نفسه في تواريخ مختلفة.

وآمل أن يكون بحثي هذا قد جاء في موقعه المناسب من الأحداث العربية والعالمية، في ظرف أخذت فيه الأمة العربية تكمل طريقها في التحرر، منتقلة من مرحلة التحرر السياسي إلى مرحلة التحرر الاقتصادي والفكري، ووجدت نفسها أمام فراغ فكري يجب أن تملأه بمادة من ثقافتها وروحها وأخلاقها، لتسد الطريق نهائيًّا على الشعوبية المتربصة أو المتخفية المقنعة.

والأمة العربية بموقعها بين القارات الثلاث من العالم، وبموقع ثقافتها الإنسانية بين العالم الغربي المادي، سواء الرأسمالي والاشتراكي، والعالم الشرقي الوثني والروحاني الخيالي، وبموقعها القيادي من العالم الإسلامي تستطيع أن تقوم في العالم بدور المنقذ، وأن تكون رائدة الحضارة الإنسانية المقبلة وطليعتها، وأن تلقي لا بصواريخ اكتساح العالم المادي فحسب، بل بقذائف القوة الأخلاقية البناءة للوصول إلى قلب الإنسان وإلى ساحة الإنسانية السعيدة المتصلة بالله.

دمشق: ٢٤ جمادى الأولى ١٣٧٩هـ
٢٥ تشرين الثاني ١٩٥٩م
محمد المبارك
عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق

القِسم الأوّل



أزمة الحضارة والأمّة المُنقذة

إن العالم حيث بلغ اليوم في مسيره، والحضارة حيث هي في طريقها في هذه المرحلة من التاريخ، ينتظران الأمة التي تقوم بالدور البطولي في هذه العقدة من مسرحية التاريخ البشري. تلك الأمة التي لا تعمل بدافع الأنانية والأثرة، ولا طمعًا في مكاسب تنالها لنفسها من أرض تضم لها، أو شعوب تحكمهم، لتجعلهم مصرفًا لبضاعتها وسوقًا رخيصة لشراء موادها الأولية. ولكنها تعمل بدافع الإشفاق على الإنسانية، ورغبة في مغانم عامة للبشرية، وحبًّا في تحقيق سعادة البشر، والأهداف المثالية والغايات الإنسانية.

إن العالم ينتظر أمة تقوم بدور البطل، كما ينتظر شعبٌ يتمخض بالأزمات، ويشتد فيه الوعي والحركة والغليان، بطلًا قائدًا تتجمع فيه رغبات شعب وأهداف أمة ومثُلها. فالعالم اليوم في أزمات آخذ بعضها برقاب بعض لا يجد لها حلًّا، وكلما وجد حلًّا ظن فيه الخلاص انتهى به إلى أزمة جديدة أو أزمات.

إن الحضارة الحديثة التي تكونت في الأصل من عنصر الثقافة اليونانية الرومانية، بما فيها من فلسفة عقلية، ووثنية دينية، وإنسانية مغلقة؛ ومن عنصر المسيحية بعد أن غشيت روحانيتها المثالية غواش من المادية القديمة، ومن النفوس الأوروبية التي لم تتفتح إنسانيتها، ومن الجانب المادي من الحضارة الإسلامية التي حملها العرب إلى الأندلس مفصولًا عن الجانب العقيدي والخلقي من هذه الحضارة.

لقد انتهى الأمر بهذه الحضارة إلى تقدم عقلي رائع مستمر في أفق الحياة المادية، وصناعة آلية كبرى، ومستوى مرتفع للحياة المادية ومطاليبها، وثورات

شعبية سياسية أطاحت بالنظم الفردية المطلقة.

وانتهت كذلك إلى مادية أو ريبية في فلسفة الوجود والاعتقاد، وإلى مادية في أهداف الإنسان وقواعد سلوكه وإنكار لجميع القيم الخلقية الموروثة، وضعف يشبه الموت للعواطف الإنسانية؛ وإلى نظم للحكم وللمجتمع لا تقيم وزنًا إلا لتحقيق الأهداف المادية، من كثرة الإنتاج، وتحسين مستوى العيش المادي على أسس جائرة أو عادلة لأفراد الشعب، وإلى استعمار أمم لأخرى تستولي على أرضها، وتتحكم في أمرها، وتتصرف في أموالها.

إن هذه الحضارة المعاصرة، سواء ظهرت في شكل شعوب منظمة، أو في شكل مذاهب فلسفية أو سياسية، أو في أنظمة للحكم، ليست إلا تعبيرًا عن خصائص هذه المرحلة واتجاهاتها المادية، وليست الأزمات المستمرة المستحكمة - سواء في المجال الدولي أو الاقتصادي أو الأخلاقي - إلا نذرًا تنبئ عن نقص هذه الحضارة أو فسادها أو انتهاء دورتها.

إن العالم ينتظر نظامًا جديدًا للحياة، ويتشوق لمثل عليا غير المثل الخادعة التي كان يسير نحو خيالها الكاذب.

ولكن المثل العليا الإنسانية لا بد لها من يد تحملها، ومستقر مادي تنهض منه، وقاعدة بشرية تستند إليها. إن المثل العليا من أي نوع كانت لم تقم بذاتها في التاريخ، ولم تتحقق إلا عن طريق شعب حملها ونشرها ونفذها. وإن تاريخها مرتبط دومًا بشعوب وأقوام تبنتها وتحمست في سبيلها، وجاهدت لتحقيقها، وكان بينها وبينها تجاوب وتوافق، بل مواعدة والتقاء.

لا بد من شعب معين، تعينه ظروفه ويساعده استعداده لحمل راية الحضارة في مرحلة معينة من مراحل التاريخ. لا يكفي لحل أزمة الإنسانية أن نفتش عن المثل

الأعلى الذي تحتاج إليه، وعن العناصر الناقصة في تركيب حضارتها ليتمها، لا يكفي أن نتصور الوظيفة، بل لا بد من التفتيش عن العضو الذي يقوم بها.

ما أكثر ما كان الناس في كل عصر على إدراك لما يجب أن يكون وللقاعدة الواجبة التطبيق، ولكنهم ينتظرون القائد البطل والرائد القدوة الذي يتمثل فيه معنى هذا الواجب، ويتحقق في ذهنه ونفسه وعزيمته المثل الأعلى المنشود، وكذلك الحال في أمر الشعوب والأمم.

وإني أعتقد بعد تفكر طويل أن العرب هم الأمة المرتقبة للقيام بهذا الدور العالمي، وأن الحضارة الإنسانية المثالية المرتقبة تنبثق من حضارتهم، وتستمد عناصرها من تراثهم، وأن بيدهم نتيجة ذلك مفتاح حل الأزمة العالمية، وأنهم الطليعة المنتظرة، والرائد المرتقب، وبناة المستقبل الإنساني. وذلك لأسباب مادية ومعنوية كثيرة. وأبرزها:

موقع العرب من العالم

أ - الموقع المادي أو الجغرافي:

إن موقع بلاد العرب بين قارات العالم الثلاثة، واتصالها عن طريق البر والبحر بمختلف أقوامه وحضاراته، يعين الأمة العربية على القيام بهذا الدور الحضاري الفعال، فيجعلها قادرة على فهم الأقوام والشعوب، وعلى الاتصال بهم بسهولة، مع وجود حيز من الأرض خاص بها تحيطه من جوانبه الصحاري والبحار. وللبلاد العربية الممتدة بين القارات، في أراضي قارتين منها مزايا خاصة، في التنوع والتكامل وسعة الامتداد وكثرة المنافذ المشرفة.

أضف إلى هذه العوامل الطبيعية، مزية الانسجام والوحدة الطبيعية القائمة بين سكان البلاد العربية.

ب - الموقع المعنويّ أو الحضاريّ:

ولئن كان موقع الأرض العربية موقعًا ممتازًا مساعدًا بالنسبة إلى العالم، فإن موقع الحضارة التي حملها العرب والتراث الذي تناقلوه جيلًا بعد جيل، والمبادئ والأفكار التي دانوا بها، تقع بين حضارات العالم كذلك في موقع ممتاز.

ذلك أن الأمة العربية تقع أولًا من الوجهة الحضارية موقع المركز الإشعاعي والنواة من العالم الإسلامي. فهي التي تمده بثقافتها، ومن معين لغتها ينهل قادته ومثقفوه. وهي المرجع الأخير لتصحيح الانحراف، وتقويم الاعوجاج. والفهم العربي هو الضابط في فهم هذه الحضارة التي شعت من بلاد العرب ومن كتاب الله الذي نزل بلغتهم.

وتقع حضارة العرب التي انبثقت من الإسلام، في موقع متوسط متزن بين حضارتين، **أولاهما**: حضارة الغرب المادية التي قدمت عن الإنسان صورة بتراء لا تقع إلا على الجانب المادي منه، ورسمت له كذلك منهاجًا أبتر، ونظامًا ناقصًا، فجفت ينابيع الحياة الروحية فيها، ولا سيما بعد أن ضعف تأثير المسيحية، وتغيرت من عهد بعيد في أرض الغرب معالمها الحقيقية وروحها. **وثانيتهما**: حضارة الشرق الذي كانت تغمره روحية خيالية لا جذور لها في الأرض، وهي روحية غير قابلة للحياة، كتلك التي كانت تعيش في الهند والصين، ولم تستطع أن تقدم إلى الحضارة العالمية عنصرًا يمكن أن تستفيد منه، لأنها كذلك تعطي صورة عن الإنسان بتراء ناقصة تهمل الجانب المادي منه.

إن الحضارة التي شعت من بلاد العرب والتي تجاور الحضارتين غربًا وشرقًا، هي وحدها الحضارة الجامعة الكاملة التي لم تهمل جانبًا من جوانب الإنسان، ولم تقدم نموذجًا للإنسانية ونظامًا لسيرها يغبن فيه أحد الاعتبارين المادي أو الروحي. فلقد جمعت بينهما في وحدة كوحدة الحياة نفسها كما خلقها الله، فجاءت جميع مفاهيمها ونظمها وما أقيم على أساسها من مجتمعات مكتملة العناصر تمشي على ساقين لا عرجاء على ساق واحدة.

وحدة الأمة العربية وانسجام أجزائها

أضف إلى ذلك ما يمتاز به الشعب العربي من أكثر شعوب الأرض، من اتصال أجزائه وسكانه في وحدة حقيقية متصلة، منسجمة في الأفكار الأساسية في الحياة، وفي المبادئ والمشاعر. وذلك مما يساعده على حسن الاستفادة من موقعه العالمي الجغرافي والحضاري.

ذلك أن البلاد التي يسكنها اليوم أبناء الأمة العربية قد تم تعريبها، في هذه الدائرة الواسعة التي تصل إلى شواطئ المحيط الأطلسي وحدود إيران وشمالي الشام والبحر العربي في الفتوحات الأولى التي خرج بها العرب يحملون رسالة الإنسانية إلى العالم.

وتعممت في هذه الدائرة العربية عقائد ومبادئ لم تكن غريبة عنها، فقد سبقتها عقائد دينية من نوعها. فجاءت رسالة الإسلام مؤكدة ومكملة رسالات الديانات السماوية السابقة التي كانت منتشرة في هذه الرقعة من الأرض. وبذلك تكون قد خرجت من جزيرة العرب موجتان:

إحداهما بشرية، أمدت البلاد المتاخمة في الشام والعراق ومصر والمغرب بعدد وفير من أبناء العربية، هاجروا إليها قبل الإسلام قليلًا وبعد الإسلام بكثرة وفيرة؛ فاندمجوا بأهلها وانصهر الجميع في بوتقة واحدة، وعمت العروبة هذه البلاد كلها.

وأما **الموجة الثانية**، فهي موجة ثقافية فكرية. فقد نشر العرب لغتهم، والعقائد والمبادئ التي دانوا بها، نشروها في تلك البلاد، فأصبحت أساس ثقافتهم وحياتهم الاجتماعية، وتمت بذلك عملية التوحيد الفكري والثقافي. ولم يكن ما تبقى من الديانات الكتابية في هذه البلاد لتتجافى أو تتنافر مع هذه الموجة الإسلامية في العقيدة والثقافة لتلاقي الأصول وتشابه المبادئ.

لقد تمت بين سكان البلاد العربية عوامل الوحدة والانسجام بشكل لم يتم لأكثر بلاد العالم، إذ لم تقتصر هذه الوحدة وذاك الترابط والانسجام على ناحية اللغة أو الأصل والجنس أو الثقافة أو المعتقدات، بل اجتمع ذلك كله، وتظاهرت هذه العوامل كلها لتكوين المجتمع العربي، وجعله وحدة اجتماعية حية خصبة منتجة فعالة.

استعداد العرب وتجربتهم التاريخية وسابقتهم

وهي أسباب أساسية جدًّا تضاف إلى ما سبق من الأسباب التي ترشح العرب للدور العالمي المنتظر، وسنوضحها فيما سيأتي من مباحث الكتاب.

إن ما فطر الله عليه العرب من فطرة طيبة، يجعلهم أحسن الناس استعدادًا للجمع بين الوسائل المادية والأهداف الخُلقيّة الكريمة. وهم معروفون بطبعهم بأنهم لا يجعلون المادة من المال أو القوة غاية الحياة ومقياس الخير، ولا ينصرفون إلى الخيال والأساطير والروحانية السلبية عن جادة الحياة وفطرتها السليمة وسننها

الطبيعية، بينما عرفت شعوب أخرى بالتردي في الماديات في شتى ألوانها وأشكالها أو بالغوص في الخيالات والعزوف عن الفطرة في روحية انعزالية.

ولعل هذا هو السر في هذا التلاقي بين رسالة الإسلام والأمة العربية، والتجاوب بينها وبين مبادئه الجامعة في نظام رائع بين مادية الحياة من ناحية الوسائل، وأخلاقياتها من حيث الأهداف، وإلهيتها من حيث المصدر.

وللعرب في تاريخ الحضارة سابقة وأي سابقة، فقد قادوا العالم تحت ظل الإسلام إلى أشرف الغايات وأنبل الأهداف، وإلى آفاق جديدة واسعة في معرفة الكون والطبيعة. واستطاعوا أن يجمعوا في نظام بديع بين الشعوب والأمم في حضارة إنسانية رائعة.

تلك هي بعض الأسباب الكبرى التي تجعلنا نعتقد أن العرب مؤهلون للقيام في العالم الحديث بدور الإنقاذ للحضارة الإنسانية الآخذة في انهيار مستمر من وجهة الغايات والأهداف. ولكن هذا الدور الضخم في تاريخ العالم وتاريخهم يتوقف على وعيهم لذاتهم، ووعيهم لرسالتهم ودورهم، بعد عملية جذرية عنيفة للتحرر من رواسب عصور الانحطاط من جهة، ومن النفوذ الأجنبي المتجلي في الاستعمار وفي مفاهيم ومذاهب أجنبية فاسدة من جهة أخرى، وتدارك جميع نواحي التخلف عن مجالات الرقي المادي الذي بلغته الحضارة في هذا الميدان، للوقوف في رأس الطريق في مسير الحضارة، دون الأخذ بما يقترن بذلك الرقي من مذاهب فكرية واعتقادية وأخلاقية ليست هي من مستلزماته.

إن هذا التحرر والوعي يقتضيان كشف الالتباس عن كثير من المفاهيم الخاطئة، وإنارة المفاهيم الغامضة، وتجلية المفاهيم الصحيحة، لتسريع حركة الوعي

المستيقظ، وكشف الستار عن مداخل الحركات الشعوبية التي تأخذ ألوانًا مختلفة، وعن مفاهيمها المنقولة، وشعاراتها المستوردة. ومن أجل هذه الغاية كتبنا هذا الكتاب ونسقنا أبحاثه وأجزاءه.

بين القومية والإنسانية

إن البشرية في واقعها كانت ولا تزال تتكون من مجموع وحدات قومية لا من مجموع أفراد. ولكل وحدة قومية موقع من الأرض وتاريخ، أورثاها خصائص ومزايا عرفت بها، وظهرت في ميادين حياتها، أوجدت فيما بين أفرادها ارتباطًا نشأ عن هذا الاشتراك في الأرض والأصل والتاريخ وفي الصفات والمزايا بوجه الإجمال.

وهذا الارتباط بين أفراد الجماعة القومية الواحدة فطري طبيعي، وهو من نوع ارتباط أفراد الأسرة فيما بينهم، وارتباط أفراد القبيلة أو العشيرة، ولكن في نطاق أوسع. وهو نوع من التعبير عن غريزة حفظ الذات الجماعية.

وليس الشعور القومي إلا تعبيرا عن هذه الغريزة، وهو أشبه بالشعور الأناني بالنسبة إلى الفرد ضمن الحد الذي يكون دفاعًا عن النفس وحفظًا للذات الفردية.

وإنما تتفاوت الأقوام أو الجماعات القومية في خصائصها ومزاياها بسبب اختلاف الأصل، وظروف الحياة في رقعة خاصة من الأرض، واختلاف حوادث التاريخ. فهي تتفاوت في طبائعها وأمزجتها وفي نفسيتها وعقليتها وفي ميولها واتجاهاتها.

وهذا الاختلاف نعمة وليس بنقمة، ذلك أنه يؤدي إلى أن يكمل بعضهم بعضًا حين تتلاقى وتتعاون؛ وذلك كاختلاف الأفراد المؤدي إلى تعاونهم عن طريق إكمال بعضهم خصائص بعض. فعلى التفاوت يبنى توزع الوظائف، وبتوزع الوظائف يتم التعاون على تحقيق ما لا يتحقق في حال الانفراد.

إن الأقوام والشعوب ليست في الحقيقة متساوية في مزاياها واستعداداتها وخصائصها. وهذا لا يمنع تساويها من حيث القيمة المعنوية وفي الكرامة الإنسانية، ولكنها مختلفة في مواهبها، في ذكائها وطريقة فهمها، في ميولها العملية والفكرية والفنية، في فعاليتها وحبها للجهد والعمل أو ميلها إلى الراحة والكسل، في نفسيتها وأمزجتها وانفعالاتها. عرف أجدادنا هذا فوصفوا الأمم كما وصفوا أنفسهم بصفات متباينة.

وشأن الأمم في ذلك شأن الأفراد في اختلاف ميولهم ومواهبهم، وإن كنا نعتبرهم أخلاقيا وحقوقيا متساوين. ولذلك كانت مساهمة الأمم والشعوب في الحضارة مختلفة، وقدرتهم على تمثل المبادئ الإنسانية، أو على الإبداع الفني أو النبوغ العلمي متفاوتة كذلك. وهذا لا ينافي أن هذه الشعوب يطرأ عليها المرض والصحة والقوة والضعف والجهل والعلم.

إن هذه الخصائص المميزة لكل أمة يجب مراعاتها واعتبارها في تطور تلك الأمة وفي مناهج حياتها ونظم تشريعها. ولكن يجب من جهة أخرى عدم إهمال الخصائص الإنسانية العامة، بل ينبغي كذلك العناية بها وتنميتها، إذ بذلك تلتقي الشعوب والأمم في نقاط مشتركة.

إن إهمال الخصائص المميزة إضاعة للذاتية، وإضاعة للجهود البشرية، واقتلاع للجذور التي تصلنا بالبيئة التي نعيش فيها، كما أن الاعتماد عليها وحدها، وتخصيص الفروق القائمة بين الأمم بالاعتبار، وإغفال الخصائص المشتركة بينها، تقوية للعصبيات العرقية، ووقوف دون نمو الروابط الإنسانية، وتعويق للتطور نحو حضارة إنسانية متعاونة مثلى.

وإن البشرية كما أنها لم تقف في حركتها وتطورها خلال العصور عند حدود الأنانية الفردية بل تجاوزتها - بعد أن حددتها بحدودها المؤدية إلى البقاء وحفظ الذات - إلى مرحلة الشعور الجماعي في حدود الأسرة، ثم القبيلة ثم القوم، كذلك لم تقف الجماعة القومية عند حدود الأنانية القومية، والشعور الذاتي للجماعة، بل تجاوزتها بدافع طبيعي أيضًا إلى مرحلة الشعور الإنساني والروابط الإنسانية المشتركة، سواء من الناحية الاقتصادية أو الفكرية أو الاعتقادية أو الأخلاقية.

إن في الإنسان فردًا وجماعة إلى جانب غريزة حفظ الذات وحب الذات، غريزة حب الانطلاق من الذات إلى خارجها. وإذا كانت الغريزة الأولى تصور الإنسان في حالته الراكدة، فإن الغريزة الثانية تصور الإنسان في حركته أو حياته المتطورة وفي تطوره التقدمي المستمر.

ولهذه النزعة نحو الإنسانية تعبيرات كثيرة في مجال الفكر والأخلاق والأديان. ولهذا كانت التيارات العالمية، والروابط الإنسانية، - سواء ظهرت في شكل مذاهب سياسية، أو عقائد دينية، أو آراء علمية، أو عادات اجتماعية، - ملبية لحاجة طبيعية، وموافقة لفطرة أصيلة، بل إنها آخذة في النمو كلما تقدمت البشرية.

وإننا لنجد أن الصعيد المشترك الذي تلتقي فيه الشعوب والأقوام آخذ في التزايد يومًا بعد يوم. ولو أنك اليوم زرت جامعة أو مدرسة في عدة بلاد مختلفة في الشرق أو الغرب، أو قرأت مجلة أو صحيفة، أو حللت في فندق، أو حضرت جلسة نيابية، أو زرت مصنعًا، لوجدت تشابها عظيمًا في مختلف هذه الميادين.

لذلك أصبحت القوميات المغلقة على نفسها من مخلفات التاريخ ومن مظاهر التأخر، وأصبح الاقتصار على الشعور الذاتِيّ في كل جماعة قومية جمودًا ونكولًا

عن السير في طريق التقدم البشري والتكامل الإنساني والتعاون بين الشعوب في شتى الميادين.

ومن هنا كان أثر الأديان التي انتشرت بين شعوب كثيرة في الأرض كالمسيحية والإسلام في تقوية هذه الروابط الإنسانية والانسجام مع هذا التيار الطبيعي نحو التعاون الإنساني. ولهذا السبب نفسه وجدت بعض المذاهب الفلسفية والسياسية، كالشيوعية على ما فيها من مفاهيم باطلة، مدخلًا طبيعيًّا إلى نفوس البشر حين استفادت من ميل البشر إلى فكرة إنسانية جامعة.

إن الشعور القومي، والشعور الإنساني، وكلاهما طبيعي من أصل الفطرة قد يقعان في بعض الظروف ولدى بعض الأمم في موقف التعارض والتصارع. وهذه الحالة في نظرنا حالة مَرَضِية، ولكن الحالة الطبيعية المثلى هي في توافق الشعورين وانسجامهما وسيرهما في اتجاه واحد لا في اتجاهين متعارضين، شأنهما في ذلك شأن التوافق بين الشعور الفردي والشعور الاجتماعي في الإنسان. وذلك ما يتحقق لدى بعض الأمم في بعض ظروف التاريخ، فينتج أروع آثار الحضارة ويفيد الإنسانية أعظم الفوائد.

إن القول بحصر الإنسان في الإطار القومي وحده، واعتبار حدوده هي الحدود القصوى التي يتطلع إليها الإنسان، وقلب واقع البشرية ووجودها القائم إلى مثل أعلى واجب الاتباع؛ هو إغفال لأروع ما في قصة الإنسان من صفحات الحضارة وما في نفسه من التطلع البعيد إلى آفاق الإنسانية، وتغاضٍ عن التيارات التي اجتاحت وما زالت تجتاح بموجاتها العالمية القوميات جميعًا، كالمسيحية والإسلام وغيرها أيضًا من مكتسبات الإنسانية، كأفكار الحرية والمساواة والاشتراكية.

إن القوميات لم تستطع مطلقًا أن تغلق الأبواب على نفسها، وتسد المنافذ على تحفّز الإنسان نحو الأفق الإنساني؛ كما لم تستطع التيارات العالمية العامة سواء كانت أديانًا أم كانت مذاهب فلسفية، أن تقضي على القوميات، أو تمحو هذا التقسيم الذي قسم الله البشر على أساسه، إذ جعلهم شعوبًا وقبائل منتسبين إلى أسر وأقوام. وكل ما استطاعت أن تفعله في أقوى عهودها هو أنها خففت من غلواء العصبية القومية وتجاوزها على مبادئ الحق والعدل، وذلك في أزمنة محدودة وعند فريق من الناس.

ولكن تقدم الإنسان وتطوره الحضاري لم يكن دومًا انسياقًا مع الواقع وانطلاقًا مع الغرائز، بل كان في أكثر الأحيان، - إن لم نقل دائمًا - نتيجة ثورة على الواقع وصراع مع الغرائز.

فالأنانية والغريزة الجنسية من خصائص الإنسان وواقعه، وقتلهما قتل لخصائص الإنسان. ولكن ترك الحبل لهما وإطلاقهما بلا قيد يعود على الإنسان نفسه بالضرر والخسران، ولذلك كانت المبادئ الأخلاقية تدعو إلى كبح غلوائهما والسمو إلى الإيثار وحب الغير، وتقييد الغريزة الجنسية بقواعد اجتماعية وقانونية.

وكذلك جاءت المبادئ الإنسانية العامة تربط بين البشر جميعًا برباط روحي يدل على وحدة المصدر والمصير، أو برباط خلقي يجعلهم متساوين في كرامتهم تطبق عليهم قواعد متماثلة في العدالة، أو برباط قانوني أو غير ذلك من الروابط التي تمثلت في الأديان الكبرى الشاملة، أو في المذاهب الاجتماعية العالمية.

جاءت هذه المبادئ الإنسانية العامة تمثل سمو الإنسان وتقدمه، معدلة للواقع، مانعة من أن يهضم الحق وتداس الفضيلة بدافع من الغلو في حب الجماعة التي ينتمي إليها الإنسان، غلوًّا يصل به إلى احتقار الجماعات البشرية الأخرى واستحلال الاعتداء عليها وسلب أموالها وسوء معاملتها.

على أن هذه التيارات العالمية، والموجات الإنسانية التقدمية، إنما كان الحامل لفكرتها والداعي إليها والمنفذ لها في واقع التاريخ البشري جماعة بعينها وأمة من الأمم، ولم يقع أن يتفق أفراد متفرقون من أمم شتى على نشر مذهب إنسانيّ ويتمكنوا من نشره في العالم، إذ لابد من وحدة بشرية حية سبق وجود تجانس وانسجام بينها لتحمل الفكرة وتحققها وتناضل في سبيلها ومن هنا كان تباري الأمم وتفاضل الشعوب فيما قدّموا للبشرية من أفكار إنسانية، وما وسّعوا من الصعيد المشترك بين الشعوب، وما حققوا من تعاون الأقوام وإتمام بعضهم لخصائص بعض.

ولهذا اقترنت كل فكرة إنسانية وكل رسالة عالمية باسم شعب من شعوب الأرض قديمًا وحديثًا، ولو أنها انتقلت فيما بعد إلى غيرهم. فلا يذكر الإسلام كمبادئ إنسانية ونظام عالمي عام، إلا ذكرت الأمة العربية، حتى امتزج تاريخه كرسالة وحضارة ودين بالعرب كشعب وأمة، وبالعربية كلغة، مع أن الإسلام عمَّ شعوبًا وأممًا كثيرة في الأرض. وكذلك في العصر الحديث اقترنت الشيوعية كفكرة عالمية بالشعب الروسي والأمة الروسية مع أنها انتشرت في دائرة أوسع من هذا الشعب بعينه.

إن تطوّر البشرية يتم على أساس نمو الوحدات البشرية الحية المنسجمة - التي هي القوميات - نموًّا ذاتيًّا من جهة، ونموًّا على أساس الالتقاء فيما بينها وتوسيع الصعيد المشترك من جهة أخرى؛ وذلك عن طريق ما يخترقها من تيارات إنسانية فكرية واعتقادية وأخلاقية واقتصادية، وما تصل إليه من مراحل متشابهة بسبب وحدة الجنس البشري وتشابه مراحل تطوره.

وكل نظرية تُبنى على غير هذه الصورة الكاملة للبشرية أو هذه المسلمات الواقعية فهي نظرية خاطئة. وكل مذهب عقائدي فلسفيًّا أخلاقيًّا كان أم سياسيًّا لا يستند إلى هذه الأسس فهو مذهب أبتر مآله الإخفاق.

ملاحظات هامّة حول تكوين الأمّة

إن العوامل التي تكوّن الأمم هي نفسها في تحول وتطور، وهذا ما أغفله أكثر علماء الاجتماع الذين بحثوا هذا الموضوع، فقد ذكروا الأرض والعرق واللغة والدين والثقافة والتاريخ والمنفعة المشتركة، وهذه العوامل ليست مختلفة في نصيبها من التأثير في تكوين الأمة فحسب، ولكنها نفسها تتفاوت في قوة تأثيرها بحسب الزمن والطور الحضاري الذي تمر الأمة به.

فقد كانت الأرض بموقعها ومناخها وجوّها وطراز الحياة فيها، ذات أثر كبير في الحياة الابتدائية الأولى، حين كانت المواصلات قليلة، وسلطان الإنسان على الطبيعة ضعيفًا؛ وكذلك كان للعرق البشري الذي تكوّن في تلك الأرض بخصائصه المادية والمعنوية أثره في حياة الأمة. ولكن أثر هذين العاملين الماديين آخذ بالضعف والنقصان كلما ارتقت الأمم واتصل بعضها ببعض وكثرت الاتصالات المادية والمعنوية.

والتطور البشري آخذ في اتجاه يقوى فيه بازدياد مستمر أثر العوامل المعنوية كالثقافة والمعتقدات والأفكار، وما ينبثق عنها من أنظمة اجتماعية وسياسية وعادات. وعلى هذا فالمناقشة التي يناقش بها علماء الاجتماع هذا الموضوع؛ والتي قوامها المفاضلة والمقابلة بين هذه العوامل خاطئة من أساسها لأنها مبنية على نظرة يركد فيها الزمن **[ستاتيك]**، لا على نظرة حركية زمنية **[ديناميك]**.

لقد كان الانتساب إلى الأرض والعرق هو الرابطة الأساسية بين أفراد شعب أو قبيلة، ثم تطورت هذه الرابطة تطورًا تدريجيًّا فأصبحت الرابطة بين أفراد أمة من

الأمم هي رابطة الانتماء إلى ثقافة واحدة ومعتقدات واحدة، سواء أكانت هذه المعتقدات دينية في صبغتها أم اجتماعية. وبذلك تطور مفهوم الأمة وتطور واقع الأمم نفسه؛ فبعد أن كانت الأمة تتألف بالدرجة الأولى من المنتمين إلى أصل واحد أصبحت تتألف من المنتمين إلى مفاهيم واحدة أو متشابهة في الحياة، وإن كانوا غالبًا بالإضافة إلى ذلك منتمين إلى أصل نسبي أو عرق غالب.

ومن أحدث أشكال الأمم التي يجمع بينها نظام الحياة ومفاهيمها وفلسفتها، الاتحاد السوفيتي؛ وأمريكا. فكل منهما مجموعة بشرية كبيرة تتكون من قوميات مختلفة، يجمع بينها الفلسفة الشيوعية والنظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، والفلسفة الديمقراطية والنظام الديمقراطي بمعناه المعروف في البلاد الغربية وفي الدول الأمريكية المتحدة. ومع ذلك فقد يكون للعوامل القومية في داخل هذين المجتمعين؛ السوفيتي والأمريكي أثر قوي يختفي وراء مظاهر من الأفكار والمبادئ والتيارات والتصرفات العامة والتطورات السياسية، إلى جانب الأثر التوحيدي الناجم عن العقائد والمفاهيم المشتركة.

من هنا يبدو لنا أن مفهوم الأمة في تطور، وذلك لأن تكوين الأمم نفسها في تطور مستمر يتجاوز تفكيرنا الموروث الجامد عن الأمة، فهي في طور انتقال من التكوين العضوي البيولوجي إلى التكوين العقائدي الأيديولوجي.

مفاهيم القوميَّة

١ – القومية حقيقة قائمة وواقع:

إن مما لا يمكن إنكاره، كما تبين مما سبق، أن القوميات حقيقة واقعة ووجود قائم، له أثره في حياة البشر في الماضي والحاضر، ولذلك وجب أن يؤخذ بعين الاعتبار في النظر إلى الحياة الإنسانية وفيما يقام فيها من أنظمة ومذاهب. فالجماعات القومية هي القاعدة الأرضية التي تقام عليها وتنفذ بواسطتها وتنتشر منها.

وانتماء الإنسان إلى قوم بعينه وتحدثه بلغتهم وتطبعه بعاداتهم وشعوره بالارتباط بهم وبأرضهم جزء من صفات الإنسان الواقعية التي كانت ولا تزال. فالناس مذ كانوا حتى يومنا هذا منقسمون إلى أقوام وشعوب، عرب وهنود وصين وأتراك وصقالبة وفرنسيون وألمان وإسبانيون... وإن انتماء الإنسان إلى شعب من هذه الشعوب له أثره الخاص في حياته وتصرفاته، وإن عاطفة الإنسان نحو بني قومه التي تبلغ أحيانًا حد العصبية لم تُمح قط من الوجود. ولكن الأديان والمذاهب الأخلاقية حاولت إيجاد روابط إنسانية عامة تخفف من هذه العصبية التي قد تبلغ حد الإفراط والغلو وتجاوز الحق، ولكنها لم تمحها من الوجود.

فلا يزال الناس منقسمين إلى جماعات وشعوب تسكن من الأرض بقاعًا مختلفة، ولها لغات متنوعة وعادات وفنون وآداب مختلفة. بل إن عملية اختمار القوميات وتكوّن قوميات جديدة من قبائل كانت مشتتة، أو من مجموعات كانت متفرقة في دول سياسية متعددة لا يزال يجري حتى الآن، كما تجري عملية معاكسة

أحيانًا، وهي انضواء قوميات متعددة تحت لواء فكرة أو مذهب واحد كأمريكا والاتحاد السوفيتي والصين، وكلها في الحقيقة مؤلفة من قوميات أو من عناصر قومية متعددة.

فالقومية كواقع حقيقة قائمة في البشرية لها أثرها في حياتهم الفكرية والسياسية والفنية.

٢- القومية باعتبارها نظرية اجتماعية علمية:

ومن علماء الاجتماع من يتخذون من القومية نظرية علمية يعلل بها الحياة البشرية وتطورها وتاريخها وحضاراتها. فيدّعون أن لِصفات الأجناس والعروق وخصائصهم وصفاتهم الأثر الأكبر في تكوين الدول، وابداع الحضارات، وأن كل جنس من البشر أو شعب من الشعوب يبدع نوعًا خاصًّا من الحضارة تظهر فيها مواهبه ونواحي عبقريته. ويعللون كذلك الحروب بالصراع بين القوميات، ويرون في المبادئ والمذاهب والأديان كذلك مظهرًا من مظاهر خصائص الشعوب وعبقرياتها.

ونعتقد أن هذا الاتجاه لا تقره نظريات علم الاجتماع الحديثة، ولا البحث العلمي، وكل ما يمكن قبوله من هذه النظرية هو أن انقسام البشرية إلى قوميات والانتماء إلى إحدى هذه القوميات عامل من جملة العوامل الكثيرة المعقدة التي تؤثر في مجرى الحياة الإنسانية، ولكنه ليس العامل الوحيد. ثم إن هذا العامل نفسَه؛ نتيجةٌ لعوامل تختفي وراءه، كالبيئة الطبيعية، والحوادث التاريخية، والأفكار والمذاهب، والمراحل الحضارية التي تمر بها الأمم وغيرها.

لا نستطيع أن نقول مثلًا: إن التقدم العلميّ والاكتشافات الحديثة في ميادين الطبيعة هي نتيجة مباشرة لفعالية قومية معينة، أو مظهر من مظاهر عبقريتها.

ولا يمكن أن نزعم أن اليهودية والمسيحية والإسلام هي مظهر للعبقرية السامية، وأن الإسلام هو مِن عملِ العبقرية العربية. بل لا يمكن أن نزعم مثل هذا الزعم حتى للمذاهب الفلسفية والاجتماعية.

إن هذا نوع من الافتراض الذي لا يمكن للبحث العلمي الموضوعي أن يقبله أو أن يأتي عليه ببراهين مقبولة علميًّا، وإن كنا نستطيع أن نقول من جهة أخرى أن الأديان التي هي من وحي السماء ومن مصدر إلهي كالنصرانية والإسلام، والمذاهب الفلسفية والاجتماعية ذات الصفة الإنسانية العامة والتي هي من صنع الإنسان وتفكيره كالديمقراطية والشيوعية، إن هذه وتلك، مع صفتها العامة وإطارها العالمي، تتفاعل مع كل شعب أو قومية بكيفية خاصة، وتأخذ أشكالًا متنوعة، على ما بين هذه الأشكال من عناصر عامة مشتركة.

فالديمقراطية كما فهمت وطبقت في إنجلترا غيرها في فرنسا أو في أمريكا أو في إيطاليا. والشيوعية كما فهمت وطبقت في روسيا غيرها في يوغوسلافيا أو الصين.

والإسلام كما فهمه العرب وطبقوه تبدلت ملامحه وطرائق تطبيقه عند الفرس والأتراك، فشاب توحيدَه الصافي أنواعٌ من الشوائب وتحولت مرونته التي تجلت في الاجتهاد في عهد الصحابة والتابعين إلى جمود نصوصيّ وإغلاق لباب الاجتهاد، وتبدلت نظرة الناس إلى أميرهم على أنه واحد منهم، إلى نظرة طبقية أرستقراطية؛ هذا مع أن الإسلام ثابت الأصول في القرآن والسنة، واضح المعالم والتاريخ، عالمي الرسالة والمبادئ، إلهيّ المصدر.

٣- القوميّة مذهب سياسي:

ومن المفكرين والسياسيين في كثير من الأمم من يرون في القومية مذهبًا

سياسيًّا، قوامه جمع أبناء القومية الواحدة على اختلاف أحوالهم وأديانهم في وحدة جامعة وفي ظل دولة مستقلة ذات سيادة، والاعتماد في ذلك على الفطرة الطبيعية التي تربط بين أفراد الشعب الواحد، الذين يتكلمون لغة واحدة، ويعيشون في أرض واحدة، ولهم عادات متشابهة وثقافة مشتركة؛ إن هذا النوع من التكتل والتجمع طبيعي في حياة البشر وتاريخ البشرية، وكلما عرضت ظروف عاقت هذا الوضع الطبيعي وبدلته ظهرت دوافع نفسية وتيارات اجتماعية لإرجاعه إلى أصله.

ولذلك فإن الأمم التي قسّم شعبها وأرضها لسبب من الأسباب، أو احتلت وغلبت على أمرها، لا بد أن يدفعها دافع طبيعي للوحدة والتحرر والاستقلال.

وفي حال يقظتها وسريان الوعي بين أفرادها ونمو شعور الكرامة والسيادة وروح الاستقلال في نفوسهم، يقوى هذا الدافع ويبرز في شكل تيارات شعبية وأحزاب سياسية ونهضات أدبية وثورات نضالية، ويبرز من صفوف هذه الأمة ومن مناضليها قادة يوجهون النهضة ويقودون الجموع، سواء أكانوا قادة سياسيين أو فكريين أو أدباء، يعبرون عن عواطف الشعب وأفكاره وأهدافه، أو يدفعونه إلى مراحل جديدة، ويبعثون في نفسه العواطف الكامنة ويشعلون المشاعر الخامدة.

وفرق كبير بين هذا المفهوم السياسي للقومية والمفهوم العقائدي السابق، فلا يرد على هذا المفهوم ما يرد على ذاك من اعتراضات علمية، ولا ينتج عنه ما ينتج عن ذاك من النتائج التي قد تتعارض مع الأخلاق أو الأديان. وهو يحقق الأهداف نفسها التي يسعى من أجلها أصحاب المفهوم العقائدي دون أن يتخذ منها ومن مفهوم الأمة أصنامًا جديدة، أو أن يخلق وثنية حديثة.

وقد يستعمل أصحاب هذا المفهوم السياسي تعابير المفهوم العقائدي، توسعًا وعلى سبيل المجاز، دون أن يقصدوا منها ما يقصده أصحاب ذلك المفهوم

كاستعمال لفظ الإيمان والعقيدة بمعنى الاعتقاد بضرورة وحدة الأمة وتحررها.

أضف إلى ما تقدم أن هذا المفهوم السياسي للقومية لا يخلق بين القوميات تعارضًا ولا يمنع تعاونها إذا ما تم لكل واحدة منها تحقيق أهدافها في الوحدة والحرية. وأما المفهوم العقائدي الذي يجعل من القومية القيمة العليا والغاية النهائية والعقيدة الشاملة للوجود، فإنه يؤدي إلى تعارض تام بين القوميات واتجاهاتها، ويخلق في كل منها جيلًا لا يعرف الإنسانية ولا يقدس إلا قوميته، وتتكون البشرية من أجيال من البشر تحركهم وتوقع بينهم العصبيات الخاصة فتدفعهم إلى الحروب والاستعمار.

والمفهوم السياسي للقومية ينسجم مع اتخاذ الأمة المبادئ الإنسانية والأخلاقية والروحية دستورًا لقوميتها، ولكنه يفسح المجال ضمن الخطوط العامة لمبادئ الأمة ومثلها العليا لمختلف طرائق التفكير والتعبير الفني، أمام الأفراد والفئات، وبالنسبة لكل أمة من الأمم.

إن المفهوم السياسي للقومية ينسجم مع كون القومية حقيقة قائمة ووجودًا وواقعًا، وهو الذي يعطِي هذا الواقع حقه القانوني في الميدان الدولي ويقيم ميزان الحق بين القوميات. إن حرية شعب من الشعوب واستقلاله بالنسبة إلى الشعوب الأخرى مرتبط بكيانه ووجوده وإرادته.

هذا وإن المفهوم السياسي يمكن أن يستند ويتقوى بتاريخ الأمة وأمجادها وتراثها وما تملكه من قوى معنوية ومادية، فإن ذلك يقوي معنويات أبناء الأمة في نضالهم وحماستهم في الدفاع عن كيان ثمين يملكونه، وعزيز على أنفسهم بما لهم فيه من ذكريات تبعث النشوة أو الألم.

وإن النهضة العربية في العصر الحديث مذ بدأت في أواخر العهد العثماني بأعلامها وثوراتها، وكما تمثلت في نفوس الشعب العربي، تنهل من هذا المفهوم وتتجه هذا الاتجاه، ولا سيما في الثورة التي قامت عليها الجمهورية العربية المتحدة، إذا استثنينا نفرًا قليلًا أو جماعات قليلة محدودة تكونت لهم بحكم بيئاتهم وظروفهم الخاصة مفاهيم أخرى مختلفة عن هذا المفهوم العام.

٤ - القومية باعتبارها عقيدةً ومذهبًا فلسفيًّا:

ومن الفلاسفة والمفكرين من يرى في القومية مذهبًا فلسفيًّا، ونظرية أخلاقية، وعقيدة في الحياة. فالقومية غاية يضحّى في سبيلها ومثل أعلى يجاهَد لتحقيقه، ومجدها وإعلاؤها هو الغاية النهائية للنضال والعلم والعمل في الحياة وهي فوق القيم الإنسانية والخُلقية والدينية، بل هي المقياس الصحيح لهذه القيم..

فالوجود الحقيقي الخالد هو وجود الأمة، أما الفرد فوجوده عارض وهو مظهر زائل متبدل لحقيقة وراء وجود الأفراد وأثبت وأخلد من وجودهم. وللأمة روح وشخصية معنوية أقوى من الأفراد، وهي تتجلى فيهم وتتجسد في حياتهم خلال الزمن. فالقومية مبدأ روحي جماعي؛ وتحقيق روح الأمة وشخصيتها المعنوية باستمرار هو هدف الجماعة وقاعدة السلوك المثلى؛ ولو أدت إلى تقييد حرية الأفراد أو الاعتداء على الأجانب عن القومية.

لقد أصبحت القومية عند بعض الأمم كالألمان في العهد النازي تبعًا لهذا المفهوم الشامل، دينًا يحل محل الأديان ويزاحمها، ومذهبًا كسائر المذاهب الفلسفية التي تضاهي الأديان في استغراقها لحياة الإنسان، ولا سيما الناحية العقائدية

أو فلسفة الكون والحياة[١] ولهذه العقيدة شعائرها، التي توقظ روحها وفكرتها في الجماهير، وأبطالها الذين هم «أنبياء» هذه العقيدة «وحواريوها وقديسوها».

وقد تبلغ حماسة معتنقي هذه العقيدة حدًّا يدفعهم إلى بذل النفس والمال في سبيل الحفاظ على «روح الأمة» التي تكاد تحل محل الإله المعبود في الديانات، وإلى العزوف عن اللذائذ والعيش عيشة التقشف، وإلى ضرب من السلوك والشعور يخيل إلى أصحابه أنهم صوفيون روحيون كصوفية أهل الأديان وروحانيتهم؛ وهو شعور ناجم في الحقيقة من ذوبان الفرد في الجماعة، وطغيان روح الجماعة على الفرد طغيانًا يشعره أن قوة خارجة عنه تستهويه وتجتذبه، فيخضع لها خضوع العباد، ويذهل بها إعجابًا ذهول الفنانين.

حتى إن بعض فلاسفة القومية في بعض الأمم الأوروبية جعلوا للعقيدة القومية ثالوثًا يضاهئون به ثالوث المسيحية، فإن مازّيني الإيطالي جعل غاية القومية: الاستقلال والوحدة والحرية. وكان ثالوث الثورة الفرنسية: الإخاء والحرية والمساواة. وجعلها آخرون: الوحدة والتحرر والاشتراكية[٢].

والحقيقة أن هذه غايات عملية بالنسبة إلى الشعوب والأمم وتختلف باختلاف

---

(١) قال عمر الفاخوري في كتاب له سماه (كيف ينهض العرب) أصدره في بيروت عام ١٣٣١هـ: «لا ينهض العرب إلا إذا أصبحت العربية أو المبدأ العربي ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم، والمسيحيون الكاثوليك على إنجيل المسيح الرحيم، والبروتستانت على تعاليم لوثر الإصلاحية، وثورويو فرانسا في عهد الرعب على مبادئ روسو الديمقراطية، ويتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك».
ومن المعلوم أن عمر الفاخوري أصبح شيوعيًا بارزًا في الطور الأخير من حياته! (المؤلِّف).

(٢) حصرت بعض الجماعات أهدافها وغاياتها في شعار: (الله والملك والوطن). (المؤلِّف).

حاجاتها وأوضاعها. فالأمة المجزأة لا بد لها من الوحدة، والمحتلة أو المستعمرة تصبو إلى التحرر والاستقلال، والمنظمة تنظيمًا جائرًا طبقيًّا أو إقطاعيًّا تتوق إلى العدالة والاشتراكية. فهي غايات اجتماعية نسبية تختلف بحسب الأحوال والعهود، وليست غايات نهائية للإنسانية تصلح أن تحل محل الغايات الكبرى التي هي جزء من العقيدة التي يدين بها البشر.

لقد انقلب الواقع في هذه النظرية إلى واجب، والوجود إلى مثل أعلى، والسنة الطبيعية إلى قانون أخلاقي واجب الاتبّاع. وأصبحت القومية شاملة للوجود كله مع أنها في الحقيقة جزء منه، وغدت هي نفسها عقيدة ومثلًا أعلى في حين أن كل قومية محتاجة إلى عقيدة ومثل أعلى. ذلك أن معنى القومية الانتماء أو الانتساب إلى قوم، فهي للجماعة كالأنا بالنسبة للفرد، فكيف يصح أن يكون هذا الانتماء نفسه مثلًا أعلى وغاية للوجود؟ قد يكون مقبولًا أن يقول إنسان: إني أختار المثل الأعلى المنسجم مع انتمائي إلى جماعة قومية معينة، أي أن ثمة تناسبًا بين كل قومية ومثلها الأعلى، أما أن يكون مجرد الانتساب غاية في الحياة فأمر غير مقبول.

هذا وإن في جعل القومية ذاتها مذهبًا اجتماعيًّا أو أخلاقيًّا شاملًا للوجود مخالفةً للواقع وغرورًا خادعًا من جهة، وهو سبب من جهة أخرى لنشوء نوع من العصبية الجماعية جرّت في كثير من الأحيان إلى ارتكاب بعض الأمم للجرائم والآثام بحق الغرباء عن قوميتهم، مسوغين ذلك لأنفسهم باعتبار أن كل ما يؤدي إلى ارتفاع قوميتهم وإعلائها فهو ليس مباحًا فحسب، بل واجب يجاهَد في سبيله، وهذا ما وقع فيه النازيون من الألمان.

ولا يحل هذه المشكلة إلا اشتراك القوميات في أهداف إنسانية ومثل عليا مشتركة، يساهم كل منها في سبيل تحقيقها بقدر استعداده وحسب ميوله وتبعًا

لمواهبه وخصائصه، ويشتركون جميعًا في الإيمان بهذه القيم الخلقية والإنسانية، وبذلك تكون القومية مرتكزًا طبيعيًّا للمثل الإنسانية العليا، وتكون الرابطة في داخل القومية الواحدة وبين أفرادها رابطة إنسانية أخلاقية، ويكون الدفاع عن القومية دفاعًا عما تحمله من مثل عليا وقيم خلقية، ويؤدي ذلك إلى تعاون القوميات وإقامة سلم دائم بينها.

وقد تشترك عدة قوميات في مثل أعلى أو في نظام عقائدي واحد وفي ثقافة مشتركة تنبثق عنه؛ كما حدث ذلك بين الأمة العربية والأمم الإسلامية الأخرى، وكما جرى في العصر الحاضر بين الشعوب التي أخذت بالمادية الاشتراكية والنظام الشيوعي، هذا إذا كانت تلك الشعوب مؤمنة فعلًا بهذه المبادئ.

على الصعيد العربي

إن العرب بلغوا منذ عهد بعيد وقرون متطاولة مرحلة الشعور بكونهم أمة متميزة من سواها، لها كيانها ومزاياها. وهذه المرحلة لم تبلغها بعض أمم أوروبا إلا في العصر الحديث ومنذ قرن أو قرنين. وبعض أمم العالم لم تصل بعد حتى اليوم إلى هذه المرحلة من نضج الشعور الذاتي.

وقد تفتحت في نفوس العرب منذ عهد بعيد الروح الإنسانية، وأدركوا كثيرًا من القيم الخلقية والإنسانية الخالدة. ولكن ذلك كان في إطار الصحراء والقبيلة، ولم يكن المثل الأعلى مكتملًا في جميع نواحي الحياة. فلما ظهر الإسلام أقبلوا عليه، وهفت نفوسهم إليه، إذ وجدوا فيه الصورة الكاملة للمثل الأعلى الإنساني المنشود الذي تنتظم فيه القيم الخلقية والإنسانية في نظام عام وفي أفق إنساني واسع، فساهموا مساهمة فعالة في تكوين حضارة إنسانية كانوا هم روادها ومؤسسيها، وسبقوا الأمم إلى السير في طريق التقدم البشري، وحملوا رسالة إنسانية تعجز اليوم عن حملها الأمم المعدودة في الطبقة الأولى في تقدمها وارتقائها، وكونوا عالمًا -ماديًّا وثقافيًّا- شمل رقعة واسعة من الأرض، وضم في صعيده شعوبًا عديدة كانوا هم نواته وقادة الفكر والحكم فيه، ذلك أنه كان مبنيًّا على ثقافتهم وعلى الدين والكتاب اللّذَين حملوهما إلى الناس.

ولكن عوامل متعددة، لا مجال لتفصيلها الآن، أخرجت العرب من مكان القيادة السياسية وإن ظلت لغتهم غالبة وثقافتهم منتشرة ودينهم سائدًا، وانتهى الأمر

إلى تكوين عالم سمي **الشرق الإسلامي**، وأفضت قيادته إلى الدولة العثمانية، التي هي فرع من الدولة السلجوقية، تولى الرياسة فيها آل عثمان.

وكان العرب شعبًا من شعوب الشرق الإسلامي وجزءًا من أجزاء الدولة العثمانية. وكانت هذه الدولة جامعة لعدد من شعوب الشرق الإسلامي، ومؤلفة على أساس الوطنية العثمانية والسياسة الإسلامية - على النحو الذي فهموه- في ظل خلافة آل عثمان. وكان الحكم الغالب فيها للأتراك، وإن كانت الثقافة العربية هي الثقافة الأساسية أو المصدر الأصلي للآداب واللغة، والدين السائد هو الإسلام.

وقد وصف الأستاذ ساطع الحصري هذا العصر في كتابه (محاضرات في نشوء الفكرة القومية) وهو من أحسن من يؤرخ لذلك العصر فقال:

«كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية بكل معنى الكلمة[1]. كان الأوروبيون **يسمونها تركيا، ولكنها هي نفسها ما كانت تتلقب بلقب «التركية»** أبدًا، بل كانت تسمي نفسها «الدولة العلية العثمانية»... هكذا نشأت السلطنة العثمانية مشبوبة بإيمان ديني عميق، متوجهة إلى أهداف دينية صريحة. إنها كانت دولة إسلامية بكل معنى الكلمة».

كان الأتراك العثمانيون يعبرون عن القومية بكلمة **الملة**، وكانوا يقولون على الدوام: الدين والملة شيء واحد.

في الواقع؛ إن السلاطين كانوا أتراكًا، إلا أنهم ما كانوا ينتسبون إلى التركية،

(١) نخالف الأستاذ الحصري في هذا الحكم إذا كان يريد به أنها كانت تطبق الإسلام وتحكم بروحه وتعاليمه، فقد كانت بعيدة عن ذلك، ونرجح أنه يريد أنها بنيت على مفهوم إسلامي في جمع الشعوب في إطار واحد. (المؤلف).

لأن كلمة «التركية» كانت أصبحت في عرف رجال الدولة وكتابها مرادفة للعامية والبدائية.

ويظهر من كل ما تقدم أن كل شيء في السلطنة العثمانية كان ينعت طورًا بالعثمانية وطورًا بالإسلامية، ولكنه ما كان ينسب إلى التركية أبدًا.

وأما فكرة القومية التركية بمعناها المتميز عن العثمانية وعن الإسلامية على حد سواء؛ فما كانت تجول لا في خواطر رجال الدولة ومنوري الأمة؛ ولا في أذهان سواد الشعب وعوام الناس.

ولذلك كانت دوائر النفوس تسجل العثمانيين حسب ديانتهم ومذاهبهم، دون أن تلتفت إلى لغاتهم وقومياتهم.

إذا استعرضنا الآثار الأدبية الحماسية وجدنا أنها تتكلم على الدوام عن الوطن العثماني وعن الأمة الإسلامية، وتتباهى بأمجاد العثمانيين ومفاخر المسلمين.. ولكنها ما كانت تنسب ذلك إلى القومية التركية، حتى انها ما كانت تذكر كلمة الترك والأتراك على الإطلاق.

إن الأتراك العثمانيين كانوا – حكومةً وشعبًا – مرتبطين بفكرة **الوطنية العثمانية الإسلامية** ارتباطًا شديدًا، وبعيدين عن الشعور بالقومية التركية بعدًا كبيرًا.

والأحوال استمرت على هذا المنوال حتى أواخر القرن التاسع عشر، بل حتى أواخر العقد الأول من القرن العشرين، وبعد ذلك بدأت فكرة القومية التركية تعمل عملها في النفوس[١].

(١) ص: ١١٣ – ١٢١. (المؤلِّف)

بدأت اليقظة والنهضة في البلاد العربية وفي جميع أجزاء الدولة العثمانية بسبب الاتّصال بأوروبا بالمطالبة بالحريات الداخلية والضمانات الدستورية، وكانت هذه الحركة تستمد من مزيج من الأفكار الغربية كمبادئ الثورة الفرنسية والأفكار الإسلامية.

ثم تطورت النهضة إلى حركة لا مركزية ثم إلى حركة انفصالية استقلالية، وكان من أهم دوافعها ما ظهر في الأتراك في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من العصبية التركية، وما انتشر من الظلم والفساد.

ولم يجد العرب من أسباب المغايرة والمباينة بينهم وبين الأتراك - وكلهم مسلمون - إلا اختلاف القومية، فكانت العربية نقطة الاستناد للانفصال عن الأتراك العثمانيين، بالإضافة إلى انتشار موجة القوميات في أوروبا في هذه الحقبة من التاريخ بوجه خاص.

ولما استولت الدول الاستعمارية الأوروبية على البلاد العربية بلدًا بعد بلد اشتدت الحركات الاستقلالية للتحرر من سلطان الحكام الجدد الذين يختلفون عن العرب لا من جهة القومية فحسب بل من جهة الدين أيضًا.

وفي خلال هذا التطور السياسي كان يجري تطور اجتماعي يقوم على أساسين: **أحدهما** الإعجاب بالحضارة الأوروبية وإكبارها والشعور بالضعف والدهشة أمامها، والتأثر بسبب ذلك بمظاهرها وأفكارها، **والثاني** نمو الشعور الذاتي والوعي القومي في العرب.

* رد الفعل أمام الحضارة الأوروبية:

أما رد الفعل أمام الحضارة الأوروبية فكان في بادئ الأمر ضربًا من الدهشة والذهول أمام لغز لا يحل، وقف أبناء الشرق الإسلامي تجاهه على اختلاف

قومياتهم موقف المستشعر بضعفه، المحتقر لنفسه، المعجب إلى حد الذهول بغيره. وكان هذا الموقف النفسي سببًا لأنواع من الانفعالات الفكرية.

وكان التفكير يدور حول أسباب تأخر الشرق وتقدم الغرب في سلسلة من الموازنات والمقارنات في شتى نواحي الحياة بطريقة تختلف من واحد لآخر حسب ثقافته ومعتقداته، وكثيرًا ما كانت هذه المقارنات سطحية لا تنفذ إلى الأسباب الجوهرية العميقة، بل تكتفي بمظاهر المغايرة بين الشرق والغرب وجعلها هي أسباب التأخر والتقدم دون رد هذه المظاهر في كل منهما إلى جذورها التاريخية والاجتماعية.

واستعد الشرق في هذه المرحلة لتقليد الغرب في كل شيء، والتأثر به في كل الميادين، واِتخاذ الأمم الأوروبية نموذجًا للاقتداء؛ ولذلك وجب تحديد خصائص المدنية الأوروبية في العصر الذي بدأ به اِتصال الشرق بالغرب، بالإضافة إلى خصائص الشرق الإسلامي الموروثة في حالها الأخيرة، لمعرفة التطورات التي مرَّ بها والصفات التي اتصف بها.

وقد كانت فرنسا من أبرز الأمم المتمدنة في ذلك العصر، وكان لثقافتها ونظمها الأثر الأول في الشرق، وكان السائد في أوساطها المثقفة المذهب العقلي الوضعي من الوجهة الفكرية، والريبية والإلحاد في ميدان الدين، واللذة والسعادة في ميدان الأخلاق، والديمقراطية والبرلمانية في ميدان الحكم، ويعتبرون الفرد وحريته الأساس في الدولة والمجتمع ولذلك كان الحكم هو التأليف بين مصالح الأفراد الساكنين في أرض الوطن أيًّا كانوا، لا رعاية المثل العليا المنبثقة عن تاريخ الأمة وحضارتها، ولذلك كانت الفكرة التي يبنى عليها المجتمع الفرنسي هي الأرض أو الوطن أكثر من أن تكون مبنية على الأمة المتحدرة من أصول تاريخية.

إن هذه الفلسفة العقلية الإلحادية الفردية النفعية التي كانت غالبة على المدنية الفرنسية، أثرت تأثيرًا عميقًا في طرق التفكير ونظم التعليم والحكم في الشرق الإسلامي؛ وخاصة الشعوب التي تتكون منها الدولة العثمانية، ومنهم الأتراك والعرب.

*** نمو الشعور الذاتي:**

أما نمو الشعور الذاتي وازدياد الوعي الداخلي فقد كان العامل الثاني في تكوين العرب الحديث، وقد بدأ منذ اشتدت حركة الانفصال عن الأتراك، وازداد شدة بالحركات الاستقلالية للتحرر من الاستعمار وكان أبرز مظاهره الأولى الاعتزاز بالماضي والافتخار بالتاريخ، وكان ذلك سببًا في التأمل والتفكير في هذا الماضي وتمييز الصفحات المجيدة منه والتفتيش عن مواطن القوة وأسباب النجاح والتقدم.

وأصبح للعرب مصدران يستمدون منهما القوة: أحدهما خارجي يجدونه في نماذج الأمم الأوروبية، وثانيهما داخلي وهو تاريخهم وحضارتهم. وكان هذا المصدر الثاني يتزايد قوة ويتسع أفقًا، وما يزال كذلك حتى يومنا هذا.

وتختلف نظرة الناس التحليلية إلى الغرب وإلى تاريخ الأمة وذاتيتها، وفي تمييز الجوهري من غيره، والأصيل من العارض في كل منهما، في عمق هذه النظرة أو سطحيتها، كما يختلفون في التنسيق بين المصدرين والتوفيق بينهما في نظرة جامعة.

ومن هنا نشأت في هذا العصر في العرب تيارات وآراء ونظرات مختلفة، تبلغ في غلوها أحيانًا في الاعتماد على المصدر الخارجي حد الشعوبية والارتداد عن عقيدة الأمة العربية وحضارتها ومجتمعها، كما تبلغ حد الجمود في الاعتماد على المصدر الداخلي ولا سيما في طوره الأخير الموروث وحالته المتردية أحيانًا أخرى.

ولئن كان الاتصال بالغرب قد أوقد شرارة اليقظة وسبب حركة الدم في الجسم الراكد، وكان من هذه الناحية خيرًا، فإنه من جهة أخرى فتح في جسم العرب ثغرة نفذ منها الكثير من الأفكار الغربية وانتقل عن طريقها كثير من أمراضه أو أعراضه المرضية.

إن الشعور الذاتي والوعي القومي الذي حدث كان طبيعيًّا في هذه الحقبة من تاريخنا، ولكن هذا شيء والصيغة التي صيغ بها هذا الشعور والفكرة التي عبر بها عن هذا الوعي شيء آخر. ومن الواجب المحتم التنبه إلى مداخل الشعوبية والنفوذ الأجنبي في صياغة الأفكار وفلسفة الوعي. وننتقل هنا إلى مرحلة أخرى من مراحل يقظتنا في هذا العصر.

* مرحلة تحديد الذات:

إن الشعور الذاتي في الأمة العربية ظهر قبل الحقبة الأخيرة، أي إلى ما قبل ثلاثين سنة تقريبًا، في مظهره السياسي، فلم يكن يشعر الناس بحاجة أشد من حاجتهم إلى الاستقلال السياسي. ولذلك أخذ هذا الشعور الذاتي في العرب شكل حركات تحررية استقلالية وطنية، هدفها استقلال الأقطار العربية موضعيًّا ثم اتحاد هذه الأقطار في دولة واحدة، ولذلك لم تكن تلك الحركات الوطنية ذات برامج إصلاحية مدروسة، كما أنها لم تكن مستندة إلى فلسفة محددة أو عقيدة معينة، وهي بالنسبة إلى جمهرة الشعب تستمد من روحه وعقيدته ودينه وتاريخه وقوميته دون أن يكون ثمة حاجة لفلسفة هذا الشعور في صيغة جديدة.

لم يكن ثمة مناص من الانتقال من الحركة السلبية بعد أن تحررت أكثر الأقطار العربية، إلى حركة إيجابية توجيهية بنائية. فقد قوى الشعور الداخلي بسبب قوة

الصدام مع الأجنبي المستعمر والشعور بالتميز عنه، وبسبب الغزوات الفكرية الجديدة التي هاجمتنا من الخارج، فكانت **مرحلة التفتيش عن الذات** وتحديد معالمها، وأصبح السؤال المطروح هو: **من نحن؟ ما هو كياننا؟ ما هي مقوماتنا؟**.

وظهرت هنا في بعض البلاد العربية التي هي في أطراف الجزيرة - وتخوم العروبة تلك تختلط فيها منذ القديم الأمم والأجناس والديانات ولم تصهرها العروبة بعد الفتح صهرًا كاملًا في بوتقها - ظهرت في هذه البلاد وفي بعض الأوساط والبيئات ذات الأوضاع الخاصة أجوبة تمثل الانحراف عن الجادة وعن جمهرة الشعب، كجواب القومية السورية المصطنعة، والفرعونية، والفينيقية، من القوميات الإقليمية الضيقة، التي اخترعت أحيانًا ولفقت وصنعت لأغراض خاصة وتنفيسًا عن رغبات مكبوتة.

ومع ذلك فإن تحديد صفة العروبة على أنها انتماء إلى قوم وانتساب إلى أمة لم يكن في الحقيقة كافيًا في الطور الأخير من حياتنا، فإن الغرب يقف أمامنا، لا في شكل قوميات فحسب من فرنسية وجرمنية وسكسونية، بل في شكل مذاهب فكرية وعقائد اجتماعية، ملحًّا علينا بالجواب، عارضًا علينا مذاهبه وعقائده ونفوذه الثقافي الفكري، غير مكتف بجوابنا أننا عرب.

ذلك أنه يعرض علينا اشتراكيته المادية (الشيوعية)؛ أو ديمقراطيته الرأسمالية لنلتحق بمعسكر من معسكراته العقائدية. وإذا اكتفينا بتحديد قوميتنا وأننا عرب وجد أمامه فراغًا قابلًا لأن يملأ، ذلك لأن القومية لا تعني مذهبًا من مذاهب الحياة وعقيدة من العقائد، وإن كانت تعني شعورًا اجتماعيًّا وتماسكًا وتضامنًا، وانتسابًا إلى أمة وجنس، ودفاعًا عن كيان اجتماعي في رقعة من الأرض.

إن تلك المذاهب التي كانت أمم الغرب تقدمها لنا، لها في تلك الأمم جذور، وكانت نتيجة تجارب وظروف تاريخية معينة بالنسبة إليها، وإن وجدت فيها بعض العناصر الإنسانية العامة التي تكون أحيانًا أحد عناصر الإغراء بالنسبة للمنجذبين إليها من أبناء قومنا.

وكان ينبغي أن يكون الجواب المنطقي الطبيعي لهذه المذاهب المعروضة أن يتخذ العرب من تاريخهم وعقائدهم وحضارتهم ما يقابلون به تلك المذاهب. فإن العرب لا يبدؤون الآن من الصفر كما يزعم الشعوبيون، بل إن لهم رصيدًا ضخمًا في تاريخ البشرية والحضارة، ولئن اعترى حضارتهم ودينهم وتاريخهم تشويه في العصور الأخيرة، فإن ذلك لا يمنع أن يكون وراء عصور التشويه هذه عصورًا زاهرة نضرة، وحضارة أصيلة، وعقائد صافية حية.

إن الطريق الوحيد لمنع الغزو العقائدي الأجنبي هو أن يكون لنا نظام عقائدي سليم قابل للحياة يتصل بنا وبتاريخنا وعقائدنا دون الاكتفاء بالانتساب إلى قوميتنا. ذلك لأن القومية انتساب وانتماء ووجود، وليست في ذاتها عقيدة في الحياة. فإذا اكتفينا بهذا الانتساب، وأقمنا من القومية نفسها عقيدة ومذهبا في الحياة، كنا كمن أخلى الساحة وأوجد الفراغ وفسح المجال للغزو الخارجي أن يتدفق حيث لا يجد عائقًا ولا مانعًا.

ولذلك كانت الحركات القومية المستندة إلى مجرد عاطفة الفخر والاعتزاز، أو لمجرد المقاومة السلبية للغزو الأجنبي غير مانعة من تسرب الغزو العقائدي، ولا تتصف بأي مناعة أمام المذاهب الأجنبية، ولا سيما إذا اكتفت بتحرير الجيل من رواسب عصور التشويه والانحطاط الأخيرة، فهي بذلك تجري عملية تفريغ وتخلية

وكأنها تنتظر بعد ذلك من يملأ الساحة الفارغة من الخارج، ولهذا تعالى في أوساط بعض المثقفين نداء بحاجة القومية العربية إلى أيديولوجية أي مذهب عقائدي أو بتعبير آخر يجري أحيانًا على ألسنة بعضهم، (**الحاجة إلى تحديد المحتوى**)، وكأن الأمة العربية في هذا العصر وقبل ذلك بقرون تعيش في إطار فارغ من أي محتوى، مجردة من أي أيديولوجية أو اتجاه عقائدي في الحياة.

وهذا الادعاء ناشئ عن أن معاول التحرير المستعارة من الغرب هدمت جميع القيم الموروثة، سواء منها الدخيل أو الفاسد الذي يستحق الهدم، والأصيل الصالح الذي يستحق البقاء. ولكن جمهور الشعب العربي في كل بلد لم يستمع لهذا النداء لأنه يجد فيه ما يتضمن الحط من شأنه والغض من قيمة الأمة العربية، فهذه الأمة لم تعش يومًا واحدًا دون عقيدة منذ قامت دعوة إبراهيم الأولى في رحاب مكة تنادي بعقيدة التوحيد، وإن كانت هذه العقيدة أخذت أشكالًا وصورًا عديدة تتناسب مع الزمن كما قضت بذلك حكمة الله في سنن الكون والمجتمع.

إن الشعب العربي يشعر كل الشعور بقوته الروحية وغناه وأنه يأوي إلى ركن شديد، ولا يشعر بالنقص والفقر والحاجة.

على أني أقف هنا مستدركًا مُعقبًا على هذا القول بأنه إذا كان القصد من الأيديولوجية الجديدة عملية تهذيب عقائدنا الموروثة من العصور الأخيرة لنفي الدخيل عنها، وإزالة ما علق بها عبر القرون، وما غشيها من عناصر طارئة أو طفيلية أو غريبة فاسدة، ثم التوفيق بينها وبين ظروف حياتنا الحديثة ومراحلها مع الحفاظ على الأساسي الجوهري منها، إذا كان هذا ما يراد بالدعوة إلى أيديولوجية جديدة للأمة العربية فاللهم إنه لرأي مقبول، ولكنه مع ذلك موضوع في قالب ينبو عنه العقل

العربي الذي يعتقد بحق أنه من عهود بعيدة جدًّا أصاب كبد الحقيقة، وشرّفه الله بإدراك العقيدة الخالدة، وأي مثل أبرز وأوضح في هذا الباب من أن محمد بن عبد الله – صلوات الله عليه – حين جاء بالإسلام الذي كان أعظم ثورة وانقلاب في حياة العرب والعالم، لم يدّع أنه أتى بعقيدة جديدة، بل قال أنه جاء **ليحيي ملة أبيهم إبراهيم وليتمم مكارم الأخلاق**.

* عوامل جديدة في تطور الوعي العربي:

إن ثمة عاملين أو سببين كان لهما في هذه الحقبة من الزمن تأثير في الاتجاه العام الذي اتجه فيه الوعي العربي في الطبقة المثقفة رغم العوائق أو العوامل المعاكسة:

أولهما: أن إحياء الثقافة العربية والتاريخ العربي خلال جميع العصور وبعث آثارهما والبحث المتعمق فيهما، أدى بطبيعة الحال وبمنطق البحث إلى الكشف عن معالم الحضارة العربية التي امتدت بعد الإسلام في رقعة واسعة من الأرض وفي ميادين مختلفة، سواء في اللغة والأدب، أو الفقه والتشريع، أو الفلسفة والعقيدة، أو العلوم الطبيعية.

وكانت الحقبة التي ظهر فيها الإبداع والإنتاج، وارتفعت فيها القيم الخلقية والإنسانية، وأثرت أحسن التأثير في تطور الحضارة الإنسانية هي تلك التي امتدت من ظهور الإسلام إلى القرن الثامن للهجرة، وبوجه خاص القرون الثلاثة الأولى.

ولم تكن تلك الحضارة، – كما زعم الغربيون بدافع العصبية والحقد – مجموع شتات من الحضارات كاليونانية والفارسية، إذ إن البحث العلمي متجه نحو

إثبات طابع خاص لهذه الحضارة، ومجالات تقدم فيها العلم في طرق جديدة، وميادين ارتفعت فيها النفس الإنسانية، ومقاييس جديدة كل الجدة في التشريع.

ذلك أن رسالة الإسلام التي حمل العرب لواءها كانت الناظم لهذه الحضارة. فلم يأخذ العرب كل ما وجدوه أمامهم من حضارة فقد كانت بأيديهم مقاييس وقيم، بها يأخذون أو يرفضون، ويتقدمون ويبدعون. وكانت هذه الرسالة كذلك حافزًا ودافعًا لهم في آفاق الحياة.

إن الأبحاث اللغوية والتاريخية والفقهية والفلسفية في تاريخ العرب تؤدي كلها إلى حقيقة ترتفع واضحة أمام كل باحث، وهي أن ثمة صلة عميقة بين العرب ورسالة الإسلام لا يمكن لأي باحث أن يتجاهلها أو يتغاضى عنها مهما تكن قوميته أو نحلته أو عقيدته.

ولذلك بدت في هذا العصر ظاهرة رائعة تدل على هذه الحقيقة وعلى حدوث الوعي في الشعب العربي وصحة اتجاهه، ذلك أن الذين عبروا عن هذه الحقيقة في هذا العصر من كتاب العرب كان منهم المسلمون والمسيحيون[(١)]، ولبعض الكتاب والشعراء المسيحيين من أبناء العروبة كلمات بليغة رائعة في هذا الموضوع ككثير

(١) من ذلك ما كتبه جورج أنطونيوس سنة ١٩٣٨م في (يقظة العرب) ص: ٢ – ٦ من الترجمة العربية. ونبيه فارس وحسين توفيق في (هذا العالم العربي) ص: ١٥ – ١٦ و٤٦ – ٤٨. وأمين نخله في مقدمة كتاب (محمد السوبر من الأول) للبيت الرياشي، وميشيل عفلق في كلمته التي ألقاها بمناسبة مولد الرسول العربي (ﷺ)، وعمر الدسوقي في (الفتوة عند العرب)، والدكتور جميل صليبا في محاضرته (منازع الفكر العربي). ويلاحظ أن فيما كتبه الأستاذ ساطع الحصري في هذا الموضوع تطورًا واضحًا بين ما كتبه في (العروبة أولًا) عام ١٩٥٥م وبين ما كتبه في (ما هي القومية؟) عام ١٩٥٩م. (المؤلّف).

من شعر الشاعر القروي رشيد الخوري، ومقالات الدكتور نظمي لوقا في كتابه (محمد الرسول والرسالة)، والدكتور أديب نصور والدكتور جميل صليبا وهذه الظاهرة ذات مغزى عميق في دلالتها على نضج الوعي في الشعب العربي والوصول إلى اعتبار الإسلام تراثًا قوميًّا لجميع العرب على اختلاف نحلهم ودياناتهم، وينبوعًا أساسيًّا بالنسبة للأمة العربية.

أما **العامل الثاني** الذي كان له أثر في هذا الاتجاه نفسه فهو التطور الطبيعي والسير المنطقي للتفكير القومي. ذلك أن الاتجاه القومي في التفكير يسير نحو الخصائص المميزة والمقومات الذاتية للأمة.

وحين انتقل الوعي القومي من المرحلة السياسية والمادية التي رسمت الإطار والقاعدة الأرضية والبشرية إلى المرحلة الفكرية اضطر هذا التفكير أن يبحث عن خصائص الحضارة العربية وما مرت به من مراحل وحققته من أهداف ورسمت من مثل وفتحت من آفاق، وما تميزت به من اتجاهات وما انبثق عنها من تفكير وتجاوب معها من معتقدات ومثل عليا.

وكان لا بد أن يصل التفكير القومي في مسيره الطبيعي المنطقي إلى الالتقاء بما ظهر في العرب وجزيرتهم من موجات متعاقبة كان أوسعها أفقًا وأعمقها أثرًا الموجة الإسلامية. فإن العقلية العربية والنفسية العربية لا يمكن أن تعرف خصائصها واتجاهاتها، وتلمس نبضاتها وتحدد آفاقها، بدراسة حضارات أو ديانات ظهرت وانتشرت وترعرعت خارج الجزيرة العربية، أو بين أقوام آخرين، أو في بيئة اختلطت فيها الأجناس وتداخلت فيها اللغات، ولو أنها اتصلت بالعرب بعض الاتصال، بسبب اتصال العرب بعدد من الأقوام القريبين منهم في الأصل والعرق أو البعيدين،

وبحضارات مختلفة وديانات متعددة، سواء ما كان منها قريبًا إليهم وإلى نفوسهم أو بعيدًا عنها.

هذه هي الحقيقة التاريخية التي التقى عندها البحث العلمي في مسيره والوعي القومي في تيقظه، وهي ليست تاريخية فحسب، بل إن حاضر العرب وواقع جماهيرهم يؤيدها. ولكن أمام هذه الحقيقة عوائق حالت ولا تزال تحول دون ظهورها ظهورًا كاملًا، وهذه أهمها:

* **أولًا**: الالتباس الحاصل بين (الإسلام) في شكله ومفاهيمه الموروثة عن عصور الانحطاط الأخيرة، و(الإسلام) في شكله الصافي وكما فهمه العرب الأولون في صدر الإسلام.

فالإسلام الموروث مزيج من رواسب مختلف العصور انقلبت فيه القيم وتغيرت النسب وتشوهت المعالم وتبدلت المفاهيم وهذا المزيج الموروث أطلق عليه كذلك اسم (الإسلام)، وهو مختلف اختلافًا كبيرًا عن الإسلام الأصيل الذي خرج به العرب إلى العالم حيوية متدفقة، وإنسانية سامية، وروحانية إيجابية، وعدالة مناضلة، وإيمانًا فعّالًا، وشعورًا عميقًا بالمسؤولية أمام الله، وأخوّة إنسانية بين البشر والديانات.

ولقد بدأت نهضتنا بصراع بين العقلية الأوروبية المادية بما فيها من عناصر القوة والحيوية، والإسلام الموروث مع ما اقترن به من أسباب الضعف وعوارض التشوه والمرض، حتى أصبح الإسلام، بنتيجة هذا الصراع وبهذا المعنى شيئًا يُتحرر منه لا ينبوعًا يُنهل من فيضه، فالتبس الأمر على الناس حين اصطدموا بالحقيقة التي ساروا نحوها وأوصلهم التطور إليها، ولكن الطليعة المثقفة سرعان ما أدركت الحقيقة، وأزالت الالتباس، وعرفت أن الصراع في الماضي القريب كان صراعًا بين

العقلية المادية الحديثة التي تمثل شعوب أوروبا والصورة المشوهة للإسلام، وهو صراع كفة الغلبة فيه في جانب العقلية المادية المنظمة.

ولكن الصراع الجديد - وهو الصراع العنيف في معركة الذاتية الحاسمة - بيّن العقلية العربية التي تمتد جذورها العميقة إلى العقلية العربية الأولى التي تبنت الإسلام الأول فكان صيغتها الحضارية ورسالتها الإنسانية والصلة بينها وبين العالم، بل بينها وبين الوجود كله، وكانت عالميته وإنسانيته دليلًا على تشريف الله لهذه الأمة ببلوغ مرحلة الإنسانية في نضجها واكتمالها وقدرتها، وتجاوزها مرحلة القومية المغلقة التي تقصر فعاليتها على نفسها.

إن الإسلام الموروث المشوه كان مقترنًا مع كيان الدولة العثمانية، معاصرًا لها، منسجمًا معها. وهذا الإسلام الأصيل الحي الإنساني اقترن مع النهضة العربية ولازمها وانسجم معها، وتجاوب بعثه مع بعثها. ولذلك كان قتال الاستعمار في جميع صوره، والاستشراق في الأوساط اليهودية والأوروبية الغربية والشيوعية، منصبًّا على هذا الإسلام الحي الأصيل الملازم لنهضة الأمة العربية، وبنتيجة ذلك، لنهضة الشعوب الإسلامية التي ستتأثر بنهضتها وتهتدي بهديها.

* **ثانيًا:** أما السبب الثاني من الأسباب التي حجبت هذه الحقيقة وعاقتها عن الظهور بوضوح، فهو تأثر الطبقة المثقفة من أبناء العرب بحضارة الغرب، وأخذهم بأكثر مفاهيمها وأفكارها ومذاهبها. وبدأ هذا التأثر منذ اتصل الشرق الإسلامي، ومن ضمنه الشعب العربي، بالحضارة الأوروبية من نحو قرن. وكان هذا التأثر آخذا بالازدياد، وكان سيل الحضارة يسير من الأرض المرتفعة إلى المنخفضة، سنة الله في الكون ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

وقد أشرنا آنفا إلى المرحلة الأولى من هذا الاتصال، حينما كانت **المدنية الفرنسية** هي السائدة الظاهرة. ثم جاءت مراحل تأثرنا فيها بروافد أخرى من روافد الحضارة الأوروبية، منها **الثقافة السكسونية** التي نقلناها عن الإنجليز والأمريكيين عن طريق مدارسهم التي أسست في بلادنا وجامعاتهم التي يؤمها طلابنا.

ومنها **الثقافة الألمانية**، ولا سيما في الفترة التي لمع فيها نجم النازية ما بين ١٩٣٠ – ١٩٤٠ وكان لها دعاية عالمية ضخمة أثارت يومئذ إعجاب كثير من الناس إثارة حفزتهم إلى تقليدها وقراءة نظرياتها، فراجت نظريات فلاسفة القومية الجرمنية المبنية على فكرة العرق وصفائه، والعبقرية القومية، والاستعلاء القومي.

ومنها **الثقافة الشيوعية**، وقد بدأت بذورها من أكثر من ثلاثين سنة، ولكن فترة نشاطها وموجة انتشارها كانت بعد الحرب العالمية الثانية، ولا سيما في الفترة التي توافقت فيها مصلحة العرب ومصلحة الدول الشيوعية، إلى أن تبدل الموقف السياسي الدولي، ووقف الرئيس عبد الناصر في وجه تيارها الجارف وقفة غيرت مجرى حوادث التاريخ، وإلى أن كانت مأساة العراق.

إن هذه الروافد العديدة المختلفة التي كانت تغزو بلادنا العربية، ولا سيما الطبقة المثقفة، بسيل أفكارها ونظرياتها ومفاهيمها ومذاهبها، على ما بينها من اختلاف، تشترك في أمر واحد هو مكافحة المفاهيم العربية الأصيلة، ومحاربة الإسلام في أفكاره ونظراته ومبادئه وعقائده، بل محاربة تراث الديانات السماوية كلها.

ومررنا بمرحلة تتصف بالتقليد لا تقليد الماضي القريب، بل تقليد الأمم الأجنبية، وتتسم بالنقل. ونحن وإن كنا لا ننكر ما عاد به علينا هذا النقل والتقليد نفسه إذ وصلَنا بدم الحياة المتحرك بعد الجمود، فإننا ندرك أيضًا أنه نقل إلينا خصائص صاحب الدم المنقول إلى جسمنا وأعراضه وأمراضه.

لقد انتقلت إلينا مشكلات ليست هي مشكلاتنا، ولم تكن قد ظهرت بعد في مجتمعنا، وانتقلت إلينا مفاهيم وأحكام هي بنت بيئتها، ونتيجة ظروف تاريخية لأمة أو لأمم غير أمتنا، ومن هنا تولد الخطأ والسطحية مع شعور مرتكب هذا الخطأ أنه من الرواد والطليعة، ومن الصفوة المختارة والنخبة المثقفة. وعن هذا الطريق أخذنا مفاهيم غريبة خاطئة عن الحياة والأخلاق والدين والقومية، بل عن هذا الطريق فهم الكثيرون منا تاريخ أمتهم، وحكموا عليه بمنظار تلك الثقافات الأجنبية ومقاييسها، وفهموا الإسلام كذلك بهذه الطريقة نفسها، وكانت لذلك كله نتائج خاطئة وغريبة، وقد تبلغ أحيانًا منتهى الغرابة.

والبحث في تأثرنا بالحضارة الغربية بمراحله وأطواره ونتائجه بحث هام جدير بالعناية وبأن يفرد بالدراسة، ولكن ما أردنا أن نقوله هنا هو أن هذه المفاهيم الأجنبية المقتلعة من بيئتها وأرضها، والمنقولة إلينا، هي من أهم العوامل التي كانت تفصلنا عن تاريخنا، وتعزلنا عن خصائصنا، وتقصي أبناء الأمة العربية عن النظر إلى الإسلام على أنه تراثهم، وينبوع ثقافتهم، والمنهل الخالد الذي ينهلون منه عناصر رسالتهم ويستوحون اتجاهاتهم في الحياة. وذلك بقياس منطقي سخيف يتلخص في أن الإسلام دين، وكل دين أصبح من مخلفات الماضي التي يجب أن تقصى عن الحياة، فيجب إذن إقصاؤه، أو بهذا المنطق الآخر: الإسلام دين، والقومية لا تبنى على الدين، ولا يكون الدين عنصرًا أساسيًّا فيها، لذلك وجب إقصاء الإسلام عن القومية العربية.

إن هذه الأقيسة المنطقية التي تلخص لنا تفكير فريق من الناس ملأى بالمغالطات، ومشوبة إلى حد الإشباع بالمفاهيم الأجنبية الغربية، فكلها مبنية على مفهوم خاص للدين نشأ ونما في أوروبا وفي ظروف خاصة بها، ولم يتنبه أصحاب

هذا المنطق إلى أن الإسلام بطبيعته أولًا، وبحكم صلة العرب التاريخية به من حيث منشؤه وانتشاره ثانيًا، ليس بالنسبة للعرب بمثابة الدين من القوميات الأوروبية، فالوضع مختلف كل الاختلاف، وعرض قضية القومية والدين عرضًا عامًّا دون مراعاة الظروف التاريخية للقومية والدين اللذين هما موضوع البحث عرض خاطئ من أساسه لاختلاف خصائص القوميات، واختلاف صلة كل منها بدين أو أديان معينة.

إن حلول مشكلاتنا يجب أن تنبثق من مفاهيمنا الأصيلة وظروفنا التاريخية، لا أن تصنع صنعًا بمقاييس غيرنا ومفاهيمه وحسب ظروفه ثم تنقل إلينا أو تفرض علينا.

* **ثالثًا**: أما السبب الثالث الذي كان يعوق اتصال القومية العربية بحضارة الإسلام، ويعرقل الوعي الصحيح السائر في طريقه الطبيعي فهو عدم طرح القضية والنظر إليها في إطارها العربي العام، وحلها على أساس النظر إلى بعض أجزاء البلاد العربية ثم تعميم الحل خطأ بعد وضعه على الأساس الجزئي.

إن البلاد العربية في واقعها لا يقبل جمهور شعبها فلسفة أجنبية مستقاة من غير تاريخه وعقيدته، وإن وضع أي مفهوم للقومية العربية يعارض هذا الاتجاه هو مفهوم مصطنع غير واقعي.

إن أمامنا حقيقة واقعة لا يمكن مطلقًا تجاهلها، وهي أن القومية العربية بالنسبة إلى جمهور الشعب العربي، في مجموعه وفي جميع أقطاره، لا يمكن أن تنفصل في جذورها عن التاريخ والحضارة الإسلامية ولو أن دائرتهما أوسع نطاقًا وهذا الاتجاه واضح حتى عند كثير من أبناء جلدتنا من نصارى العرب ممن أشرت إليهم سابقًا، وقد عبر عنها بعضهم في الشعر والنثر بأروع القول وأعمقه وأبلغه.

ولو أن الأمور سارت سيرها الطبيعي لما وجد أحد في ذلك ضيرًا ولا غرابة

ولا غضاضة، ولكن ميراث الماضي القريب في عهود الانحطاط انتهى في بعض البلاد العربية كبلاد الشام إلى وضع خاص.

ذلك أن التقاء الأديان والطوائف، واجتماع الأجناس في تخوم البلاد العربية لم يكن دوما التقاء واقعًا في ظروف تاريخية حسنة كما كانت الحال في عهد الفتوحات الأولى، فقد ورثت الأكثرية المسلمة في هذه البلاد تلك الصورة المشوهة الجامدة للإسلام، وتلك المفاهيم والنظرات الضيقة، وعاش المواطنون من أبناء الأديان الأخرى في جو يكاد يكون مغلقًا في كثير من جوانبه. وكذلك عاشت طوائف انفصلت منذ عصور عن جمهور المسلمين بعقائدها وعاداتها وكونت مجتمعات خاصة.

وهكذا تكوّن في بعض البلاد العربية مجتمع منقسم إلى مجتمعات خاصة كان يسيطر فيها - نتيجة ظروف تاريخية مرت في القرون الأخيرة من تاريخنا - شعور الحذر المتقابل وشعور الانتماء إلى مجتمعات خاصة منفصلة عن المجتمع العام ومتميزة عنه.

وهكذا برزت في العصر الأخير وفي بعض البلاد العربية مشكلة الطائفية بسبب ما أصاب الإسلام، في تلك العصور التي تنحى فيها العرب عن القيادة السياسية والفكرية، من قلب للقيم وجمود في الفهم وضيق في النظر. ولما جاءت عهود الاستعمار في العصر الحديث زادت في توسيع الشقة وتوجيه النظر إلى مواطن الخلاف وإغفال نواحي الاشتراك والاتفاق.

إن هذا التركيب الاجتماعي أدى بطبيعة الحال إلى مفاهيم منحرفة في فهم القومية العربية ورسالة الأمة العربية دفع إليها فهم موروث خاطئ لتاريخ العرب

وللإسلام وعجز عن التجرد عن ميراث تلك البيئات الضيقة والمجتمعات المغلقة، ورغبة كامنة نشأت عن هذا الوضع في إقصاء الأمة العربية عن الخط الطبيعي لسيرها، والتكوين التاريخي لمفاهيمها وقيمها، لم تنشأ عن فساد نية ولا سوء قصد، ولكن الظروف التاريخية والرواسب الماضية والتركة المثقلة هي التي قادتها بطبيعة الحال إلى هذا النوع من التفكير المنحرف عن خط السير الطبيعي للأمة العربية.

وأدى ذلك إلى جعل القومية العربية قالبًا فارغًا بعد أن جرّد من مضمونه ومحتواه لشبهة الطائفية وتهمة العصبية، ولو أن محتواه الحقيقي كان إنسانيًّا وكان عنصرًا أساسيًّا في تركيبها وجوهر تكوينها.

إن من الجناية بحق الأمة العربية أن نجعل بعض الاعتبارات الزمنية والأوضاع الإقليمية الجزئية الطارئة، تتحكم في حقائق خالدة هي في الصميم من كياننا وتتعلق بذاتيّتنا وبمستقبل قوميتنا ورسالتها وخصائصها.

إن الصادقين المخلصين من المسيحيين العرب أصبحوا ينهجون في التفكير نهجًا يرتفع كثيرًا فوق هذه المجاملات التافهة السطحية التي تجري على حساب القومية العربية وعلى حساب الحقيقة الخالدة.

فلم يعد الكلام عن الإسلام في معرض البحث عن العرب وتاريخهم طائفية، ولا الحديث عن القرآن كتاب العربية الخالد رجعية. لقد مضى ذلك الزمان الذي كان فيه الوعي العربي نائمًا، بل لقد أصبحت الرجعية اليوم في أن لا تكون بلغت من الوعي مرحلة تجعلك تدرك الصلة بين الأمة العربية والإسلام.

الصلة بين العروبة والإسلام

إن الصلة بين الإسلام على أنه رسالة ونظام شامل للحياة وبين العرب نوضحها بإيجاز في الأمور التالية وسنعود إلى بيانها في بعض مباحث هذا الكتاب:

١ - إن الإسلام وحد مفاهيم الأمة العربية ونظرتها إلى الوجود ومقاييسها الأخلاقية، فنقلها بذلك من وحدة الأرض والدم إلى وحدة العقيدة والفكر، فأقام بذلك بينها انسجامًا فكريًّا وروحيًّا وجعل لها فلسفة شاملة للحياة.

وإذا كان لكل أمة صيغة لحضارتها، فقد كان الإسلام بالنسبة إلى العرب هو الصيغة التي قبلوها للحضارة، وذلك لا يمنع أن يشاركهم فيها غيرهم ممن قبل هذه الحضارة وآمن بمبادئها من الأمم الأخرى.

٢ - إن الإسلام، وإن كان دينًا إلهيًّا ووحيًا سماويًّا، إنما ظهر في بلاد العرب، وبشر به رسول منهم، ونزل وحيه وسُطِّر كتابه بلغتهم، وهم أول من تولى تبليغه وتفهيمه للناس، وهذه مزايا خاصة به من بين المذاهب الدينية والفلسفية، ومزية خاصة بالعرب بالنسبة إلى سائر الشعوب الإسلامية.

٣- إن الإسلام جعل للعرب في الحياة رسالة ذات مثل عليا واتجاهات إنسانية وقيم خلقية، ولم تكن كذلك حضارات العرب من قبله. وقد نقلهم الإسلام من المرحلة الانعزالية إلى المرحلة الإنسانية، ومن الصعيد القبلي والإقليمي إلى الصعيد العالم.

٤- لقد كان بين العرب ومبادئ الإسلام تجاوب خاص واتصال صميمي، وذلك مما يدل على حكمة اختيار الله للعرب للتبشير بهذه الرسالة. كما أن بينهم وبينه تلازمًا تاريخيًّا طويلًا وارتباطًا مكانيًّا ووحدة في المصير، فقد كان كما قال الأستاذ ساطع الحصري **قوة دافعة بالنسبة إليهم وقوة واقية كذلك**[١]، فهو الذي دفعهم إلى الانطلاق إلى العالم لتحريره من الظلم والضلال والجهل، فامتدوا في الأرض وانتشروا في أطرافها، وهو الذي حفظ تماسكهم ولغتهم وأخلاقهم.

٥- لقد جعل الإسلام العرب مركز إشعاع ومصدر هداية، وجعل بيدهم قيادة شعوب اشتركت معهم في الإيمان بمثله العليا وعقائده ومبادئه، القيادة الثقافية على الأقل، بل القيادة السياسية أيضًا، فهو امتداد ثقافي لشخصيتهم، والصعيد المشترك بينهم وبين الشعوب التي قبلت الإسلام وحضارته.

٦- يؤلف الإسلام أضخم جزء من تاريخهم، وهو أكبر قوة معنوية يملكونها، والعنصر الأساسي في ثقافتهم، ولذلك كان فصله عنهم أو فصلهم عنه إفقارًا وإضعافًا لهم ومناصرة للغزو الأجنبي لهم، وتفريغًا لمحتوى حضارتهم، واستئصالًا لمفاهيمهم، وفسح المجال أمام الشعوبيات الأجنبية لتترعرع على حسابهم، وفي ذلك خسارة لا يرجع ضررها عليهم وحدهم، بل على الإنسانية جميعًا.

ولئن كان الإسلام بالنسبة للمسلم دينه وعقيدته، فهو بالنسبة للعربي المسيحي تراثه القومي ومادة ثقافته. ومن حسن الحظ أن الإسلام نفسه فسح المجال للنصرانية لتعيش معه وإلى جنبه، وحمى مقدساتها ومعتنقيها، وصان معابدها، وجعل بينه وبينها صعيدًا مشتركًا يتلخص في اعتبارها دينًا سماويًّا مصدره وحي إلهي، وفي

---

(١) ساطع الحصري (ما هي القومية؟) الفصل الأخير. (المؤلف).

وحدة الأسس الاعتقادية الجوهرية وفي أن المسيح كلمة الله وروح منه، وأنه ولد من أم عذراء طاهرة بتول من غير أب. وأن أقرب الناس **"مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى"**، وأن في انتصار الروم، وهم نصارى، حينما انتصروا على الفرس، وكانوا يومئذ وثنيين، نصرًا يفرح به المؤمنون.

إن نصارى العرب كانوا وما زالوا جزءًا من أمتهم. ولئن وصلتهم بدين ابن مريم صلوات الله عليه أسباب، فإن لهم بالإسلام كذلك صلة وشيجة، فهو تراثهم القومي. من خلاله نظرَت أمتُهم إلى العالم، وعلى أساسه بنت حضارة بل حضارات، وهو مادة ثقافتهم، وفي صفحات تاريخه مفاخر أمتهم، ومعاذ الله أن يتنكروا لعروبتهم وأمتهم.

ولنا إلى هذا الموضوع عودة في شيء من التفصيل في فصول هذا الكتاب.

التيَّارات الفكريَّة في البِلادِ العَربيَّةِ

إن وجود كل أمة من الأمم وارتقاءها يتوقفان على وجود حد أدنى، لا بد منه، من الانسجام والوحدة بين أفرادها، في أفكارهم وعقائدهم وقواعد سلوكهم، وإلا فإن قواها المادية والمعنوية بدلا من أن تعمل متعاونة متساندة للتقدم إلى الأمام في جميع المجالات، يتسلط بعضها على بعض فتتعارض، وفي هذه الحالة إما أن تبقى في حالة المسالمة، ولكن على أساس التوازن المبني على الحذر المتقابل، وإما أن تتهاتر وتتنابذ وتعمل ولكن للتصارع بينها، تصارعًا يبدأ بالتنافس وينتهي بأشد أنواع الصراع، كما حدث مرارًا في الهند ما بين المسلمين والهنادك لانعدام حد أدنى من الانسجام والاشتراك بينهم.

ولو نظرنا إلى الأمة العربية، التي يمتد شعبها ما بين المحيط الأطلسي وحدود إيران، ومن ساحل البحر العربي إلى جبال طوروس على حدود تركيا، لوجدنا أن بين أبناء هذا الشعب حدًّا أدنى من الوحدة والاشتراك والانسجام، على اختلاف مستوى الثقافة والعقائد الدينية وطراز المعيشة، وذلك في العقائد والأفكار والمبادئ والمثل والأخلاق والعادات. ولكن المهم الاحتفاظ بهذا الحد الأدنى المشترك، بل توسيعه وزيادته، فإن الارتقاء وسرعته متوقفان على ازدياد نسبة الانسجام وقوة التماسك والتمازج، وإلا فقد يتعرض هذا الحد الأدنى في بعض الأقاليم العربية للخطر، إذا ظهر من العوامل ما يضعفه ويقلله، وإذا قوي الشذوذ والانحراف في اتجاه من الاتجاهات الصابئة الخارجة.

إن هذا الحد الأدنى من الانسجام في البلاد العربية، حتى في حالته الحاضرة، يفوق الحد الأدنى الموجود في كثير من الأمم الراقية، ولكن الوقوف عنده جمود يعوق الحركة ويمنع السرعة ويحول بين الأمة العربية وأهدافها. وإن الاحتفاظ بهذا الانسجام القائم وزيادته، يقتضيان النظر في العوامل المؤدية إلى الانسجام، فإن زيادتها وقوتها تؤدي إلى قوته وازدياده، وضعفها يؤدي إلى ضعفه.

وإذا تركنا هذا الحد الأدنى المشترك من الانسجام القائم بين جميع البلاد العربية، ونظرنا إلى مختلف الأقاليم والبلدان العربية، وجدنا أن قوته تختلف من بلد إلى بلد، ونسبته تتفاوت بين الأقاليم العربية. وذلك لأن بعضها متفقة اتفاقًا كاملًا من جميع النواحي، وجميع العوامل الاجتماعية المؤثرة في تكوينها تتظاهر وتتساند في اتجاه واحد.

فلو نظرنا إلى نجد مثلًا لوجدنا أن أهلها كلهم من أصل عربي، ومن عقيدة واحدة، بل مذهب فقهي واحد، فكلهم مسلمون سنيون حنابلة، وثقافتهم واحدة وهي الثقافة العربية الإسلامية، وطريقة تعليمها هي الطريقة القديمة، ومدى تأثرهم بالحضارة الحديثة واحد كذلك.

ولو نظرنا إلى المغرب، من ليبيا إلى المملكة المغربية، لوجدنا أنه يأتي في درجة مقاربة، فإن جمهرة أهله عرب أو مستعربون، ولكنّ بينهم فريقًا لم يتم استعرابه إلا من ناحية الدين والعقيدة وأكثر قواعد الأخلاق، ولا تزال لبعضهم لغة خاصة (القبايلية). وأهل المغرب على الإطلاق مسلمون سنيون على المذهب المالكي، لا يستثنى من ذلك إلا قليل من الإباضية في جنوب الجزائر وفي تونس.

ولو أخذنا مثال سورية الطبيعية أو بلاد الشام، لوجدنا أنها تعطينا مثالًا من نوع

آخر، فإن بين أهلها **حدًا من الوحدة والانسجام** يتكوّن من جماع مبادئ الدينين الإسلام والنصرانية، ومن الصعيد المشترك بينهما المتكوّن من مبادئ الاعتقاد بالله وبالنبوات والمسؤولية في حياة أخرى، ومن قواعد للسلوك الأخلاقي في الاستقامة وحسن المعاملة والبعد عن الرذائل واكتساب الفضائل مما يدعو إليه الدينان. ويتكون كذلك من عامل آخر، هو أن **جمهرة السكان عرب أو مستعربون** من قرون بعيدة قبل ظهور الإسلام وبعده.

وأما الأقليات القومية فهي، عدا قلة عددها، منصهرة في الثقافة العربية، وتشترك في عقيدتها الدينية وعاداتها إما مع المسلمين فتنصهر فيهم وتعمل في إطارهم، أو مع المسيحيين فتنصهر كذلك في المجتمع العام عن طريقهم وتعمل في إطارهم وضمن نطاقهم. وبذلك تعود هذه الأقليات القومية سواء كانت مسلمة أم مسيحية إلى الحد الأدنى المشترك بين أهل البلاد، وبين أبناء الدينين الكتابيين اللذين يصل بينهما تاريخ طويل ونظرات مشتركة. وتزيد الأقليات القومية المسلمة على ذلك أن الثقافة العربية تكون جزءًا من عقيدتها أو من ثقافتها الدينية.

وعلى هذا **فالثقافة العربية**، على اختلاف طريقة تلقينها وفهمها، هي الثقافة الجامعة بين هؤلاء جميعًا من العرب المسلمين والمسيحيين والأقليات القومية المسلمة أو المسيحية، على تفاوت بين بيئاتهم في نسبة الأخذ منها والتأثر بقيمها والإيمان بمثلها عمقًا واتساعًا.

وعامل ثالث له أثره في تكوين هذا الحد من الانسجام الاجتماعي بين أبناء بلاد الشام أو سورية الطبيعية، وهو **تأثر الجميع بالثقافة الحديثة**، المنقولة أو المقتبسة عن الغرب، على تفاوت بينهم كذلك في أخذها مباشرة من مصادرها ومعاهدها في

داخل البلاد أو خارجها، أو أخذها بطريقة غير مباشرة عن طريق تمثلها ونقلها إلى الثقافة العربية، وفي نسبة التأثر بها تأثرًا قد يقتصر على الاطلاع عليها وعلى أساليبها وآفاقها، وقد يتجاوز ذلك إلى الأخذ بمفاهيمها ومذاهبها.

وعلى كل حال، إن ثمة نصيبًا تشترك في الأخذ به الطبقة المثقفة من أبناء هذا البلد هو في الواقع من عوامل الانسجام إلى حد ما بين أفراد هذه الطبقة على الخصوص. ويقابل ذلك تأثر جمهور الشعب من أبنائه بالحياة الاجتماعية الحديثة، وأخذهم بوسائلها بنسبة متقاربة.

ونستطيع أن نقول إن جمهرة الشعب في جميع البلاد العربية متشابهة متقاربة في تفكيرها ومعتقداتها ومبادئها ومثلها ومفاهيمها والقيم التي تؤمن بها. ولكن الطبقة المثقفة بسبب اختلافها في التأثر بمختلف العوامل اختلافًا كبيرًا أحيانًا، ونمو بعض هذه العوامل على حساب العوامل الأخرى، ولا سيما في الأقاليم التي لا يكون الانسجام فيها تامًّا قويًّا يتجاوز الحد الأدنى، قد تولدت فيها تيارات فكرية واعتقادية متباينة تباينًا قليلًا أحيانًا، وكبيرًا أحيانًا أخرى.

ونستطيع أن نقسم هذه التيارات الفكرية إلى قسمين كبيرين، **أصيلة، وشعوبية:**

أما الشعوبية منها؛ فتتجلى في كل نزعة تسعى إلى الكيد للعرب وتضمر الحقد عليهم، أو على الأقل تستند إلى شعور المباينة والمغايرة في داخل المجتمع العربي، ويدفعها هذا الشعور إلى إظهار هذه المباينة والعمل على الانفصال، وعلى إزالة أسباب المغايرة لا بالاندماج والانصهار في البيئة العربية، بل بتحويل البيئة العربية عن ذاتيتها وخصائصها أو أرضها، وتشويهها أو تشتيتها أو إذابتها. وتظهر هذه الشعوبية في تيارات مختلفة فيما بينها ولكنها تلتقي في هذا الهدف وتختلف وسائلها وطرقها للوصول إليه فمن هذه الوسائل:

١ - **تجزئة البلاد العربية** وفصل إقليم من أقاليمها عنها، والدعوة لجعله وحدة تامة كاملة في أرضه وسكانه، وادعاء أن سكانه يؤلفون أمة تامة غير العربية، وإقامة سياسة انفصالية على هذا الأساس، ومن هذا القبيل النزعة الفرعونية والقومية السورية.

وتلمح هذه الفكرة بوضوح تام في تعبير الجمهورية العراقية **الخالدة**، فلا تفهم صفة الخلود المزورة هنا إلا على أساس استمرار العراق في إقليمية دائمة منفصلة عن الكيان العربي!

إن أمثال هذه النزعات الشعوبية المصطنعة تخالف الواقع والتاريخ، وتعارض الاتجاه الحقيقي للشعب الذي يسكن هذه الأقاليم نفسها، وإنما تؤيدها دوافع خارجية استعمارية، وتنسجم كل الانسجام مع الفكرة الصهيونية في فلسفتها وفي مصلحتها.

٢- أما الوسيلة الثانية التي تتذرع بها الشعوبية والسبيل الأخرى التي تسلكها، فهي **إذابة العرب في بوتقة كبيرة** وكتلة واسعة لا قيمة لهم فيها ولا تتصل بهم بسبب ولا يكون مكانها فيها مكان التوجيه أو القيادة ولا تمت إلى حضارتهم أو عقائدهم بصلة، بل يكونوا فيها الموجَّهين المقودين التابعين. وتلك هي خطة الشيوعية والشيوعيين، وتكون نتيجة هذه الطريقة قتل الشخصية العربية وطمس معالمها، وفصل العرب عن عالم يحتلون منه مكان القيادة والتوجيه، وينشرون فيه حضارتهم والقيم الإنسانية التي آمنوا بها، ويقفون فيه موقف الإمام المتبوع والمعلم الهادي.

وبهذه الوسيلة الشعوبية ترتبط الأمة العربية من جهة شخصيتها المادية في أرضها وسكانها، ومن جهة شخصيتها المعنوية بأرض وشعوب وحضارة ليست هي منها في شيء.

٣- أما السبيل الثالثة التي تسلكها الشعوبية، فهي تجزئة الشخصية العربية بدلًا من تجزئة الأرض، فإن تجزئة الأرض ظاهرة لا تخفى، أما التجزئة المعنوية

- وأمرها أخفى وأدق - فتكون بفصل العرب عن تاريخهم وحضارتهم، وتجريدهم من مثلهم ومبادئهم، بصياغة فلسفة خاصة لقوميتهم، تجافي روحهم وتقطع الصلة بماضيهم وتقيم بين حاضرهم وماضيهم حواجز لا تخترق، فتفصل شخصيتهم الحاضرة فصلًا تامًّا، أو يكاد يكون كذلك، عن شخصيتهم التاريخية حتى في أشكالها الصافية وصورها الزاهرة.

فتقيم من فلسفة فيخته ونيتشه ومازيني، أو من فلسفة الوجوديين، أو غير ذلك من الفلسفات الشاملة والمذاهب المحيطة، فلسفة يقدمونها للأمة العربية لتستبدلها بفلسفتها الأصيلة واتجاهاتها الفكرية ومفاهيمها الاعتقادية وعقائدها الدينية! وسواء بعد ذلك أَتخذت هذه الشعوبية شكل مذهب فلسفي يعلن عن نفسه، ويكشف بصراحة عن اسمه، أم تسترت بستار القومية نفسها وتدثرت بدثار العربية، فالمهم بالنسبة إليها على كل حال صرف العرب عن طريقهم وإخراجهم عن ذاتهم وإقصاؤهم عن رسالتهم وتاريخهم.

ذلك أن هدف الشعوبية بالجملة منع العرب من الوصول إلى وحدتهم المادية بتوحيد الشعب والأرض في كيان واحد، أو إلى وحدتهم المعنوية وانسجامهم الفكري والخلقي المستمدين من تراثهم المشترك واتجاهاتهم العميقة وحضارتهم وروحهم الأصيلة وعقائدهم.

أما **النزعة الأصيلة**، فهي تلك التي تستمد جذورها من الداخل من حاضر الأمة العربية وماضيها، من اتجاهاتها الأصيلة الإنسانية وحضارتها ومثلها العليا وقيمها الخالدة، والتي تستند إلى مقومات الأمة العربية والعوامل المؤثرة في تكوينها وإن اختلفت في الاستناد بوجه خاص إلى أحد هذه العوامل وإبرازه أكثر من غيره. سواء أكانت في حركتها جامدة أم مجددة، محافظة شديدة المحافظة، أو تطورية متعجلة

في تقدمها، فهي على كل حال داخلية لا تتجرد من صفة الأصالة، ولكنها قد تصيب وتخطئ، وتبطئ وتسرع، وتسير على الجادة أو تنحرف قليلًا ثم تعود.

وهذه النزعة الأصيلة تتجلى في تيارات كثيرة، تجتمع كلها تحت أحد عنوانين، وتتصف بإحدى صفتين. فتعلن بحسب العنصر الأساسي الذي تبرزه وترجحه أنها **عربية** أو **إسلامية**، وكلا الوصفين هو **لون طبيعي** لهذه الأمة العربية، و**نبع أصيل** في أرضها يمتد في تاريخ الأمة عرقًا يصل منها إلى الجذور والأعماق، وهو وصف جوهريّ ليس بعارض، وأصيل غير دخيل وإن استحال اللون أحيانًا وتغير أو غشيه من الخارج ما غشيه أو شابته بعض الشوائب.

أما **أحد الوصفين** فينظر إلى عنصر الأصل والجنس، أو إلى الثقافة بلغتها ومفاهيمها، أو إلى أرض الوطن العربي ومن عليها من سكان متجانسين خلال عصور متطاولة. أما **الوصف الثاني** فيشير إلى رسالة في الحياة كانت بالنسبة إلى العرب أوسع مما اصطلح الناس على تسميته دينًا، فقد ظهرت فيهم وبلغتهم وحملها منهم من تجمعت فيه خصالهم وتجسدت فضائلهم مبرأة من المساوئ والغلو والإسراف، فكان ظهورها فيهم سبب وحدتهم المادية والمعنوية لأول مرة في تاريخهم، وحدثًا عظيمًا في تاريخ العالم تم بقضاء من الله على أيديهم فنسبت إليهم آثاره، وكرمت من أجله حضارتهم.

إن هذين الاسمين أو الوصفين لا يمثلان تيارين متباينين، ولكنهما في الحقيقة يمثلان تيارات كثيرة، ويؤلفان مدرجًا من الألوان العديدة المتداخلة التي تبدأ من العنصرية العربية، وتنتهي في الفكرة الإسلامية المجردة، وبينهما ألوان كثيرة متتابعة.

ومن الطريف في هذا الموضوع، مما يستدعي التأمل في واقع موجود وحقيقة قائمة، أن هذين الوصفين ليسا موضوعين موضع التقابل، فضلًا عن

التعارض، مع أنهما مفهومان متغايران وليسا مترادفين، وهما في بعض هذه البلاد مطروحان على الناس على أنهما متقابلان، بل متعارضان لا بد من اختيار أحدهما. ولكل من العنوانين أو الوصفين أنصار، وبين الفريقين نقاش حاد في ترجيح أحدهما، وفي اتخاذه رابطة أساسية وقاعدة لبناء المجتمع.

إن هذا الوضع القائم في بعض البلاد العربية ناشئ عن عوامل متعددة، منها ما آل إليه الإسلام من ضيق في المفاهيم، وتشوه في القيم في أذهان المسلمين وحياتهم العملية وفي نفوس غيرهم كذلك في عصور الانحطاط العثماني.

ومنها الشعور الموروث المتكون في المجتمعات المغلقة، والذي هو شعور بالحذر بالنسبة إلى المجتمع العام، وشعور بالانتماء إلى مجتمع ضيق خاص منفصل عن المجتمع العام، وذلك بنتيجة ظروف تاريخية ماضية أبقت رواسب كان لها أثرها في الحياة الحاضرة.

أضف إلى هذين العاملين دخول مفاهيم أجنبية غريبة عن المجتمع العربي، من خلالها نظر بعض المثقفين إلى قضايا مجتمعهم فأحلوها محل المفاهيم الغربية للحياة، واتخذوها مقاييس لحل مشكلاتهم، فاستعجم العقل العربي في هذه المرحلة الجديدة في هذه البلاد العربية.

وسنتعرض بالنقد والتحليل لهذين التيارين الكبيرين في صيغتيهما المتباعدتين في أحد الفصول التالية من هذا الكتاب.

ونستطيع أن نقول منذ الآن: إن تشعب النزعة الأصيلة الداخلية في البلاد العربية، أو في بعضها إلى تيارين متباعدين أو متعارضين؛ يفسح المجال واسعًا للنزعة الشعوبية، ويفتح الثغر التي تنفذ منها إلى الأمة العربية. وإن الخير كل الخير

للأمة العربية ولما تحميه من قيم روحية، ومثل عليا في الديانات السماوية التي بقيت حية في ربوعها، بل للإنسانية جمعاء، أن يتقارب التياران ولو لم يتوحّدا، وأن يلتقي طرفاهما، وأن يتكون صعيد واسع يلتقيان عليه، وهما في الواقع ملتقيان في جانبهما **الأنسي** وإن كانا متباعدين في الجانب **الوحشي** منهما. فالأفكار أو الأهداف المشتركة بينهما حاليًّا هي:

١- تحرير البلاد العربية من الأجنبي ونفوذه.

٢- توحيد البلاد العربية في كيان واحد.

٣- اعتبار الإسلام **تراثًا تاريخيًّا** للأمة العربية، وعنصرًا أساسيًّا من عناصر تكوينها التاريخي يمكن أن **نستوحي** من تاريخه في بناء حاضرنا.

٤- حرية الأفراد في معتقداتهم الدينية، وممارسة شعائرها وليس ثمة اختلاف أساسيّ بين السائرين تحت هذين العنوانين الكبيرين، إلا في قضية واحدة كبرى وهي:

اتخاذ الإسلام أساسًا في تنظيم المجتمع الحاضر أو عدم اتخاذه، واعتبار رابطته هي الرابطة الأساسية في تكوين المجتمع أو عدم اعتبارها كذلك.

إن الجمهرة الكبرى من المناصرين لكلا التيارين أصبحت متفقة على أن تقوم دولة عربية واحدة، يعيش فيها بأمن وحرية أبناء العروبة أو المنتمون إلى الثقافة العربية من أبناء الدينين الكتابيين الإسلام والنصرانية على أنهم مواطنون في هذه الدولة من العرب، وممن أخذوا بثقافتهم ومثلهم في الحياة وشاركوهم في أهدافهم وفي الدفاع عنها. وترسي هذه الدولة مجتمعها على أسس مادية وروحية في آن واحد، وتراث الدينين المتضمن أعظم ما جاءت به الأديان من قيم روحية وخلقية،

هو الأساس الروحي لها. والإسلام، بغض النظر عن كونه دين القسم الأكبر من الشعب العربي، هو تراث الأمة العربية القومي، من روحه واتجاهاته العامة تستمد مثلها ومبادئ تشريعها.

وإنك لتجد اليوم كتابًا ومفكرين يلتقون في هذه الساحة المشتركة من مسلمين ومسيحيين، فلم يعد التحدث عن الإسلام عصبية طائفية، إلا عند فئة ضئيلة لم تستطع أن تتحرر من ضيق الأفق أو الهوى الغالب أو المصلحة الخاصة. فمن يستطيع أن يتهم الشاعر القروي بالتعصب الطائفي للإسلام حين يقول:

عش للعروبة هاتفًا * بحياتها ودوامها
وامدد يمين الحب يا * لبنانها لشآمها
انظر إلى آثارها * تنبئك عن أيامها
هذا التراث يمتُّ معـ * ـظمه إلى إسلامها

أو يقول:

أتجف أوراق العروبة في ربى * لبنان وهي نضيرة في يذبل
أتريد أعظم من أبي بكر ومن * عمر إذا انتسب الكرام ومن علي

أو في قوله:

أنا العروبة لي في كل مملكة * إنجيل حب ولي قرآن إنعام
سل عهد شامي وبغدادي وأندلسي * عن عمق فلسفتي عن عدل أحكامي
شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت * عروبتي مَثَلي الأعلى وإسلامي
وشامت بيَ مسرور بحزنِيَ مسـ * ـتشف بدائيَ ملتذ بآلامي

قولـوا لـه عربًـا تقضـوا عليـه فـإن * يسـلم فثنـوا بقـرآن وإسـلام

أو ليس ينهل كاتب عربي مسيحي كالدكتور أديب نصور من ينبوع الدينين حين يقول:

«مشكلتنا أعمق بكثير من السياسة والاقتصاد، هي مشكلة أمة فقدت مُثلًا قديمة كانت القوى الفعالة في حياتها ولم تجد مُثلًا أخرى تتفق عليها، وإني أعتقد أن العمل الجديد يجب أن يكون أخلاقيًّا روحيًّا قبل كل شيء».

ويختم كلامه هذا بقوله:

«إن دعوتي ليست أقل ولا أكثر من العودة إلى الله، ولله المثل الأعلى كما جاء في القرآن الكريم ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]»[١].

أو ليس يرجع الدكتور نصور إلى مبادئ الإسلام يستوحيها مبادئ تكون أساسًا للحكم الحاضر في البلاد العربية حين يقول: «لكن في مبادئ الإسلام كما وردت في القرآن الكريم والسنة وفي تقاليد الصدر الأول من الإسلام ما يصلح أساسًا نظريًا ونواةً عملية لحكم نيابي ديمقراطي. فهناك مبدأ الشورى وبيعة أهل الحل والعقد.. وأعتقد أنه من الخير أن نُؤلف جسرًا بين الديمقراطية الحديثة وبين تجربة ذلك الصدر من الإسلام».

ويقول أيضًا جامعًا بين تراث الدينين:

«لكني أومن إيمانًا أكيدًا راسخًا بأنّ العالم لم يصلح قط بالكيد والدهاء، وأنا لا نستطيع أن نبني المدنية الفاضلة بدون إله، وأن أمورنا لا يمكن أن تستقيم بمجرد

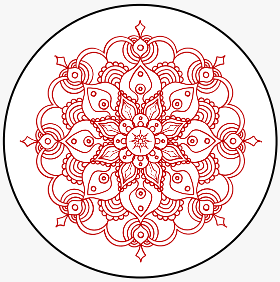
(١) قبل فوات الأوان، ص ٩٢ – ٩٤. (المؤلف).

إصدار تشريعات ومراسيم وبلاغات يجب أن نذكر دائمًا أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، وأن الإنسان ليس حيوانًا اقتصاديًّا هين الشأن. الإنسان كائن روحي.. ونحن في هذا الشرق العربي ينبغي أن لا نتنكر لعبقرية الشرق، ففي هذا الشرق القريب جرى اتصال عجيب بين الأرض والسماء، بين عالم المادة وعالم الروح. وقامت الدعوات الإنسانية الكبرى، وخرج أنبل الرجال، ومن يدري فقد يأتي الحل الأخير من هذا الشرق مرة أخرى لينقذ إنسانية معذبة حائرة»[(١)].

ولعل القارئ يجد في الفصول التالية من كتابنا، كلمة الفصل بين الفريقين، أو بين الفئات التي ترجع كلها إلى نزعة داخلية فتستبين له المحجة بين مختلف الانحرافات الآخذة ذات اليمين وذات الشمال. وقد حاولنا فيها الإيجاز مع دقة الهدف ووضوح الغاية وبذل الجهد لإصابة المفصل في كبرى قضايانا ومشكلاتنا الفكرية. وعسى أن تتاح لنا الفرصة لبسط ما أجملنا وتفصيل ما أوجزنا، بعد أن نرسم الخطوط الكبرى لشخصية أمتنا والعناصر الخالدة من تراثنا ومعالم الطريق لمسيرنا نحو هدفنا وهدف الإنسانية البعيد.

(١) قبل فوات الأوان ص ١٩٧. (المؤلف).

القِسمُ الثّانِي



الأمة العربية ورسالتها(١)

أرى من الأفضل أن نقف من زاوية نشرف منها على العالم، وفي صعيد أوسع أفقًا من الصعيد القومي المغلق لنستطيع أن نرى أنفسنا وغيرنا في آن واحد، فتكون لنا نظرة واسعة غير ضيقة، ومجردة غير شخصية، ويكون حكمنا بالتالي صحيحًا ورأينا سديدًا.

لننظر في هذا العالم الحديث، هل فيه وفي حضارته نقص يحتاج إلى إكمال، وفراغ يعوزه من يسده؟ هل في هذا العالم، الذي غدا مصطرعًا للمذاهب والعقائد وللكتل التي تنضوي تحت لوائها شعوب ودول، ولمختلف الأنظمة السياسية والاقتصادية، مكان لأمة تدخل حلبة الصراع فتغير وجه المعركة بمساهمتها وتعدل خط المسير وهدف التطور في حضارة هذا العصر؟ وهل تختلف الأمم في نوع المساهمة التي تقدمها وتتفاوت في خصائصها وتتفاضل في عبقرياتها؟ وإذا كان جواب ذلك كله إيجابيًّا، فهل أمام الأمة العربية مجال للعمل في الميدان العالمي، ومكان تستطيع أن تحتله، وفرصة للمساهمة في إكمال النقص وسد الفراغ؟

إن في العالم اليوم فريقين من الأمم والشعوب، يشمل أحدهما الشعوب الواقعة في هذه الرقعة من الأرض ما بين روسيا وأمريكا، ويشمل الآخر شعوب آسيا وإفريقيا. أما **العالم الأول**، وهو الغربي بالنسبة إلى موقعه من بلادنا العربية، وإن كان

(١) ألقي هذا الموضوع في قاعة المحاضرات في كلية التربية والتعليم بطرابلس في شهر آذار ١٩٥٨م. (المؤلف).

بالنسبة إلى أجزائه بعضها من بعض ينقسم إلى شرق وغرب، فتقوم على أرضه حضارة أو حضارات مختلفة الألوان، ولكنها تشترك في الكثير من صفاتها وخصائصها وتلتقي في الأعماق وإن انفصلت في السطوح.

إن هذه الحضارة أو الحضارات الغربية الحديثة أصبحت بالنسبة إلى شعوب العالم مطمح الأنفس وغاية الآمال وموضوع الأسوة والاقتداء، ويلمع في آفاقها العيش الرغيد ولذة النعيم والصناعة الكبرى والإنتاج الضخم والسرعة الفائقة والتنظيم الاجتماعي والاكتشافات العلمية والمخترعات العملية والجيوش الجرارة والوسائل العجيبة والأسلحة الخارقة. ومن وراء ذلك أثرة غالبة وشهوة جامحة وصراع بين الطبقات وتنازع بين الشعوب والأمم، مظهره سلب واغتصاب واستئثار واستعمار وتنافس في الفتك وتزاحم في الأسواق وتطاحن على النفوذ في البلاد والآفاق. ويستخدم من أجل هذه الأغراض: **العلم** الذي غايته في الأصل الحقيقة المجردة، **والحكم** الذي هدفه العدالة، حتى **الدين** الذي رسالته تطهير النفس والسمو بالروح.

لقد قلبت هذه الحضارة الغربية الغايات فجعلتها وسائل، والوسائل فأحلتها محل الغايات. فالحقيقة العلمية، ليست إلا وسيلة لتكثير المال والتغلب على الخصم بالحق وبالباطل، وإزهاق الأرواح وتدمير العمران. والفضيلة تستباح في سبيل كسب الجولة في معركة غايتها الاستيلاء على البلاد أو الأموال. والحرية تزهق بحجة التنظيم ورفع الظلم. والتبشير يستخدم لا في سبيل تحرير البشر من استعباد بعضهم لبعض بإخضاعهم لله وحده، بل في سبيل إخضاع شعب لشعب.

لقد ارتقت في هذه الحضارة الوسائل ولم ترتق الغايات، وغلبت الأطماع والشهوات والأنانية الفردية والجماعية - وهي أقبح وأفتك - والاعتبارات المادية

والاقتصادية، كل هذه غلبت المثل العليا والاعتبارات الخلقية والقيم الروحية والمبادئ الانسانية، وساد مبدأ القوة وأصبح التقدم العلمي والإنتاج الصناعي وسيلة لاتساع دائرة الاستعمار في العالم واستشراء الشهوة الآثرة في الفرد، وما تبع ذلك من ظلم الإنسان للإنسان، وكثرة الغصب والسلب والإكراه والتعذيب وبسط النفوذ والضغط على الحريات.

وتقاذفت الغربَ مذاهبُ متعارضة يتردى فيها ما بين فوضى الحرية المؤدية إلى الاستغلال والاستئثار، والتنظيم الآلي الذي يفقد الشخصية الإنسانية حريتها وكرامتها ويؤدي إلى الجماعية الطاغية. وتدور هذه المذاهب على اختلافها على محور مادي ولا تُخفي ذلك، بل تُعلنه في أسمائها المتقابلة وعناوينها المتعارضة.

لقد نجح الغرب في تقدم الجانب المادي من الحضارة، من ناحيتيها العلمية والعملية، ولكنه أخفق في محاولته لتقدم الحضارة الإنسانية وفي توسيع دائرة الإنسانية في الفرد والجماعة، وفي ترقية الجانب الخلقي والروحي من الإنسان، وتوسيع دائرة التعاون وتضييق دائرة التنافس والتصارع، وفي تغليب الاعتبارات الخلقية والإنسانية.

إن الأوروبي والأمريكي لم يستطع أن يخرج من دائرته الخاصة ليكون إنسانًا وليُبَشر خارج بلاده بالإنسانية ومبادئها، لقد بقي أنانيا انطوائيًا، ولم يستطع أن يرتقي إلى الصعيد الإنساني.

إن العالم ينتظر حلا لمشكلته الإنسانية، بل لمأساة الحضارة التي سارت في طريق غير نافذ. إن شعورًا بالقلق يستحوذ عليه، شعورًا بالنقص والجدب والإقفار، إنه يتلظى في سعير حياة مادية لا أثر فيها لنفخة الروح تهب من وراء هذا الكون

المادي لتخفف أثر هذا السوط الملهب الذي يسوقه كلما وقف نحو الهاوية والجحيم، لقد قطع ما بينه وبين الله من أسباب فانقلب حيوانًا مفكرًا لا إنسانًا واعيًا وروحًا ساميًا.

إن حضارة الغرب كله حضارة مادية وثنية في روحها وأهدافها، في وسائلها وغاياتها. وإن رسالة الروح التي جاءت بها المسيحية السمحة وبشّر بها ابن مريم عليه السلام لم تعد مفهومة في الغرب، لقد تدثر الغرب بدثارها وتلبس بشعارها وتدرع بمسوحها لكنه أزهق روحها وبدل جوهرها وشوه جمالها، فليس له منها إلا الأسماء والمظاهر والأشكال والمراسم. وطارت روح المسيح عليه السلام محلقة مبتعدة مترفعة عن مشاهد الشهوات الملتهبة، والعداوات المتأججة، والعصبيات الثائرة، والمادية الطاغية الجاحدة، والاستعمار المتسم بروح التمرد على ألوهية الخالق والكفر بنعمه وآلائه، ولن تجدي شيئًا تلك الصيحات التي تظهر بين حين وآخر من أعماق بعض النفوس التي هبت فيها نسمة من المثل العليا ونفحة من الروح، ولا تلك التيارات الإنسانية والخلقية، فإن إعصار المادية لا يبقي ولا يذر، وموجتها طاغية غالبة!.

لقد استطاع ابن الغرب أن يحرر الإنسان إلى حد كبير من سلطان الطبيعة وهيمنتها، ولكنه لم يستطع أن يحرر الإنسان من طغيانه، طغيان الغرائز والشهوات في الفرد، وطغيان الطبقات بعضها على بعض، وطغيان الشعوب والأمم بعضها على بعض. إن العالم بحاجة إلى حضارة جديدة، وإلى مفهوم جديد للإنسان والإنسانية، وإلى قيادة إنسانية لتقضي على الأنانية [الأثرة] المادية والطبقية المستأثرة والاستعمار الجشع، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها.

ذلكم هو الشطر الأول من العالم. أما **الشطر الثاني**، فيتألف من شعوب تحرر بعضها من أمد قريب من الاستعمار ونهض وجدّ في إنشاء نفسه وتشييد دولته

وتكوين مجتمعه، ولا يزال بعضها الآخر يدفع عن نفسه ثقل الاستعمار المنيخ بكلكله عليه، أو يسعى لإزاحة ما تبقى من النفوذ الأجنبي المسيطر عليه في شكل من الأشكال. هذه هي الشعوب التي تقع في آسيا وإفريقيا، والتي تتوالى مواكب شعوبها موكبًا بعد موكب في أعراس الحرية ومهرجانات التحرر، والتي كان مؤتمر باندونغ ومؤتمر التضامن الآسيوي الإفريقي مظهرًا من مظاهر نهوضها وتحررها وتطلعها لاحتلال مكانها والمساهمة بما تستطيع في ميدان العمل العالمي.

أليس من الحق، بعد أن رأينا إخفاق حضارة الغرب، أن نبحث لدى هذه الشعوب عن أساس جديد للحضارة؟ لحل مشكلة الإنسانية، وإقامة مجتمع إنساني عالمي يسود فيه السلم وتتعاون فيه القوميات وترتفع فيه الاعتبارات الخلقية على الاعتبارات المادية الاقتصادية، ويكون فيه للروح انطلاق كما كان للمادة في حضارة المادة انطلاق، ويحل فيه مبدأ السلم والتعايش محل مبدأ القوة، ويوصل ما بين الإنسان وخالقه من أسباب، كما وصل بين الإنسان والطبيعة، حتى تكون الحياة وحدة واتصالًا وانطلاقًا وتساميًا.

إن بعض دول آسيا وإفريقيا أصبح في نظامه وفلسفة حياته مقلدًا لإحدى الحضارات الغربية، ملتحقًا بإحدى كتلتي العالم الغربي فلا جديد يرجى عنده. وتتوجه أضواء التاريخ نحو أمّتين من هذه الأمم تقف كل واحدة منهما في طليعة مجموعة من الشعوب: **إحداهما** الهند على رأس الشعوب الهندوكية والبوذية. و**ثانيهما** العرب ومن ورائهم وحولهم الشعوب الإسلامية.

تحاول الهند بقوة وعزم أن تؤلف من العقلية الصناعية الغربية والروحانية الهندية مركبًا حضاريًّا جديدًا، وعلى هذا الأساس تنادي الهند بمبدأ السلم والتعايش، وتتعاون مع مختلف الشعوب والدول ذات الأنظمة والمذاهب المتباينة، وتسلك سياسة الحياد

الإيجابي. ولكن التاريخ الطويل يدل على أن الروحانية الهندية لم تكن بناءة ولم تنسجم مع الحضارة المادية ولم يسبق للهند تجربة ناجحة في تاريخ الحضارة تجمع فيها بين العناصر العقلية والمادية والروحية بانسجام وتوافق وتوازن.

أما **الأمة العربية**، فلها من سابقتها التاريخية وتجاربها الماضية وموقعها الممتاز بين الكتل البشرية والشعوب والمذاهب، ومن التفاف مئات الملايين من شعوب الأرض حولها مسترشدين بهديها مقتفين أثرها مؤمنين في الحياة بفلسفتها، ومن أسباب أخرى كثيرة، ما يجعل كفتها الراجحة وحظها الأوفى **لاحتلال مكان القيادة وتمثل الإنسانية بجميع عناصرها**، والأخذ بيد المجموعة البشرية في منعطف جديد للتاريخ، وملء الفراغ البادي في حضارة هذا العصر، وإقامة التوازن بين مادية الغرب الطاغية وروحانية الشرق السلبية لتكون منهما مادية خادمة وروحانية إيجابية فعالة.

* الأمّة العربية عبر التاريخ:

لنطو القرون ولنرجع إلى عهود العرب القديمة قبل الإسلام نجد أمّة – على خلاف ما يظن كثير من الناس – تتميز عن نوعين من شعوب تلكم العصور: **نوع ابتدائي** لم يبلغ بعد درجة الوعي ولم يتجاوز بعد طفولته. ونوع كان يتردى في آفات الانحراف. فالهنود غارقون في روحانية بعيدة عن الحياة ووثنية ابتدائية، والفرس في ملاذ الجسد وإقطاعية المجتمع، والرومان في طغيان الاستعمار، واليونان في النظريات الفلسفية والأساطير الدينية. في ذلك الحين كان **العرب يتميزون**:

أوّلاً– بنمو الجانب العقلي من حياتهم نموًّا سليمًا، وارتفاع مستوى التفكير عندهم بالجمع بين التفكير الواقعي الملامس للحياة والطبيعة، البعيد عن الأساطير والخرافات، والتجريد الضروري لارتقاء الفكر من الجزيئات الحسية إلى الكليات

المعنوية والنفسية، كما تدل على ذلك ألفاظ لغتهم الغنية بالمفردات الدالة على مفاهيم مجردة أو عامة كالخير والشر والحق والباطل والعدل والظلم والإنسان والحيوان، والعواطف كالود والرحمة والبر والمروءة، وكما تدل على ذلك أمثالهم وحكمهم أيضًا.

ثانياً- ويتميز العرب قبل الإسلام بخلق يعتبر القيم المعنوية، بل يجاهد لتحقيقها، فمكارم الأخلاق والمروءة هي مناط المدح والذم والفخر والهجاء، فالعربي لم يكن ماديًّا متهالكًا على اللذة ولا أنانيًّا شهوانيًّا:

وليس الغنى إلا غنى زين الفتى * عشية يقري أو غداة ينيل
وعرضي أبقي ما ادخرت ذخيرة * وبطني أطويه كطيِّ ردائيا
قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه * خلق وجيب قميصه مرقوع

وهو على قلة القوت في أرضه وشح الطبيعة فيها لا يبيع شرفه ليأكل، وليس الطعام والشراب غاية حياته ومبلغ همه، حتى إنه يفضل الجوع مع العزة، على الشبع مع الذلة وتحمل المنة، والموت مع الكرامة على الحياة مع الهوان:

فعش معدمًا أو مت كريمًا فإنني * أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه

وقال عنترة:

لا تسقني ماء الحياة بذلة * بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم * وجهنم بالعز أكرم منزل

لقد كان العربي حيويًّا فعالًا يفتش عن القوت ويضرب في الأرض ابتغاء الرزق ولم يكن روحانيًّا انعزاليًّا. لقد كان واقعيًّا عمليًّا نزاعًا إلى الحركة ولكنه في حيويته

وواقعيته لم يكن مسفًّا ولا ماديًّا، بل كان يتطلب ما هو أسمى من ذلك وأعلى:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشةٍ ❊ كفاني - ولم أطلب - قليلٌ من المالِ
ولكنما أسعى لمجد مؤثل ❊ وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وليس المال غاية في الحياة ولا مستعبدا للإنسان عند العربي، ولكنه وسيلة للمكارم وأداء الحقوق، قال عروة:

دعيني أطوف في البلاد لعلني ❊ أفيد غنى فيه لذي الحق محمل
أليس عظيمًا أن تلم ملمة ❊ وليس علينا في الحقوق معول

وقال آخر:

كريمٌ رأى الإقتارَ عارًا فلم يزل ❊ أخَا طلبٍ للمالِ حتى تموّلا
فلما أفاد المال عاد بفضله ❊ على كل من يرجو جداه مؤمّلا

لقد كان العربي قبل الإسلام يتجه نحو المثل الأعلى ويندفع بدوافع معنوية مثالية ولو أخطأه المثل الأعلى أو أخطأ في فهم المثل الأعلى وحسن تصوره، فهو مثالي النزعة والاتجاه، ولو ضل في الاهتداء إلى المثل الأعلى الحقيقي وانحرف عنه.

وإلى هذا المعنى تشير الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، واصفة حال العرب، وبمثل هذا الوصف خوطب الرسول الكريم نفسه صلوات الله عليه في الآية الأخرى ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]. ولا شك أن هذه المثالية في النزعة والاتجاه والدافع كانت تظهر في الوفاء والنجدة والإباء والشمم والكرم وحسن الجوار وغيرها من المكارم، وإن كانت كثيرًا ما تضل طريقها حتى تذهب إلى إتلاف المال باسم الكرم، وإزهاق الروح وقتل الولد خوفًا من العار وحفظًا للشرف.

لقد استطاع العرب في الجاهلية – حين لم يستطع غيرهم أن يفعل ذلك – أن يعتبروا مكارم الأخلاق والعمل مقياسًا للناس، ولم يجعلوا من أفراد البشر أبطالًا مقدّسين يقيسون بهم الأعمال أو أنصاف آلهة كما كان يفعل اليونان.

إن هذه النزعة المثالية الأصيلة عندهم لم تكن سلبية تتجلى في امتناع عن أعمال كما كانت عند الهنود، ولا نظرية كلامية تتجلى في أقوال كما كانت عند اليونان، ولكنها كانت إيجابية عملية تتجلى في أعمال وكفاح لتحقيقها وإن كان ذلك في إطار القبيلة والصحراء كمجتمع وبيئة.

نزعة مثالية حائرة أو ضالة الهدف محدودة الإطار، ذلك ما نستطيع أن نلخص به هذا الطور من أطوار الأمة العربية، لم تستطع أن توصل العرب إلى حضارة جامعة ذات رسالة نقية من تأثير الحضارات الأجنبية المتردية في الخيال أو المادية رغم كل ما ظهر للعرب من حضارات.

أما الطور الثاني من تاريخ هذه الأمة، فهو ذلك الطور الذي تحدد فيه هدفها وارتسم مثلها الأعلى واتسع إطارها وميدان عملها، فكان عهدًا حاسمًا وطورًا فاصلًا في تاريخها وتاريخ العالم في آن واحد، وذلك حينما التقى هذا الاستعداد في أمة برسالة إلهية عالمية هي **الإسلام** قدرًا من الله مقدورًا وقضاءً حكيمًا مبرمًا.

لقد قضى الله أن تلتقي سلسلتان من تاريخ حوادث الكون، تمثل إحداهما: تاريخ العرب منذ تكونهم حتى ذلك العهد، وتمثل الأخرى تاريخ النبوات والرسالات التي قدر الله تتابعها في البشر وفقا لنمو عقليتهم وتطور مجتمعهم في كل شعب أو جماعة حتى كان التقاء الجماعات والشعوب وبُدِوّ مرحلة النضج العقلي حين ظهور الإسلام، فجاء خاتمًا للرسالات الإلهية، مراعيًا بدء عهد إنساني

تلتقي فيه الأجناس والأمم، وفسح المجال للعقل الذي بلغ سن الرشد.

إن هذه الأمة العربية، ذات الاستعداد الفكري والنزعة المثالية والقدرة على الإبانة والتعبير والحيوية المناضلة، كانت مؤلفة من مجموعات من القبائل الموزعة في الجزيرة ما بين بدوٍ وحضر، تحدوهم دوافع مادية من كسب العيش، ومعنوية من الشرف والمروءة وعزة القبيلة يناضلون بدافع من هذه الأسباب في حروب وغزوات متوالية في إطار القبيلة.

انتقلت هذه الأمة في فترة قصيرة من الزمن إلى أمة موحدة منسجمة، استبدلت بالتوزع إلى مجموعات قبلية؛ وحدة مشتركة في العقيدة وفلسفة الحياة والسلوك، وبأفق القبيلة الضيق صعيد الإنسانية الرحب، وبدوافع الكسب والشرف بمفهومه القبلي دوافع غايات بعيدة هي تحرير الإنسانية من الخضوع لغير الله وتحقيق العدالة بين الناس جميعًا على أساس من الإيمان بالله الذي تتحطم عنده الوثنيات التي كانت أساسًا للظلم والفساد، وجعلت فوق روابط الدم والقرابة روابط الخضوع لله وحده أي روابط الأخوة الإنسانية، وفوق عصبية النسب العصبية للحق، وفوق شرف الفرد والقبيلة كرامة الإنسانية في الإنسان، وبدلًا من الغزو في سبيل العيش أو في سبيل كرامة القبيلة الجهاد في سبيل الله، أي في سبيل الحق والخير وكرامة الإنسانية.

ولم يكن هذا الانتقال عاديًّا قريب الخطوات ولا تطورًا مألوفًا، بل كان وثبة من وثبات القدر، وكانت المعجزة الكبرى في هذا اللقاء المقدر بين هذا الاستعداد البشري الرائع في الأرض ورسالة السماء الإنسانية العظمى، التي سمت عن أن تحدّ في أفق قبيلة أو أن تحصر في شعب في سعة مبادئها واتجاهاتها.

كان هذا اللقاء البديع الرائع الوحيد المثال في التاريخ: خير أمة تعي وتدرك

وتنفذ، وخير رسالة جامعة إنسانية الأفق، قوامها العدل والحق والخير، وأساسها الإيمان بالله والمسؤولية في حياة خالدة. أمة قيض الله لها ذلك الاستعداد العظيم لتفهم وتعي بعمق وتناضل في سبيل رسالة إنسانية عالمية. أمة يقدر لها السمو والارتفاع على نفسها حتى تتمثل الإنسانية في وعيها وحتى تجعل الإنسانية هدفها وساحة نضالها، والمبادئ الإنسانية قاعدة لسلوكها.

لقد قدر الله لها أن تخرج من مرحلة الأنانية القومية وحلقتها المغلقة التي لا تزال تدور فيها كثير من الأمم التي تحسب اليوم من أرقى الأمم، إلى المرحلة الإنسانية، فلم يعد مجدها الذاتي هو الذي يلتمع لها في الأفق فيغريها، فقد تجاوزت هذه المرحلة إلى مرحلة أصبحت فيها رائدًا من رواد الإنسانية وطليعة من طلائعها، وأصبح شرفها ومجدها في أنها سخرت نفسها لخدمة الإنسانية والسير بها نحو المثل الأعلى في هذه الحياة والأخذ بيدها إلى ما وراء مظاهر الكون المتبدلة الناقصة إلى الكمال المطلق والخير المطلق والحق المطلق، إلى الله خالق السماء والأرض.

فليست غايتها إقامة ملك ولا امتداد سلطان، ولكن تحرير الإنسان وتفتيح وعيه وتوطيد حياته على أعمق الأسس وأخلد الصلات، على الإيمان بالله وخلود المصير، فسمت بسمو الغاية، وشرفت بنبل الهدف لا بعاطفة الغرور القومي والعصبية الخاصة والاستعلاء على الناس، وهذا أقصى ما تبلغه الأمم من السمو وما تبلغه القوميات من بعد الغاية وسمو المكانة في التاريخ.

لم يقدر الله أن يظهر الإسلام في تخوم الجزيرة حيث كان تأثير الحضارات الأعجمية المتردية وآثارها الفاسدة، من فارسية ورومانية بيزنطية وعبرانية يهودية، بل في أواسطها في الحجاز التي تحمل ذكرى ديانة التوحيد الأولى.

إن الإسلام الذي اكتملت صورته في بضع وعشرين سنة، وكان الكتاب العربي المبين المعبر عنه، والنبي العربي العظيم المفصح عنه في قوله وعمله، والجوُّ العربي أول جو تفتحت له عيونه واستيقظ وعيه وتجاوبت مع مبادئه نفسيته. لقد كان هذا الإسلام حدثًا عظيمًا جدًا بالنسبة للعرب وللعالم أجمع.

لقد نهل الإسلام من النبع العميق الغزير نفسه الذي نهلت منه الديانات السابقة كل واحدة بحسب ما قدر لها وبحسب طاقة الأمة التي شعت عليها وتنزلت فيها، ولكن الجديد في تاريخ الإنسانية في هذه المرحلة هو ما حمله الإسلام إلى الناس من نظرة نقلت الإنسان من البيئة الطبيعية التي يعيش فيها إلى آفاق الكون ورحابه، ومن الأسرة والعشيرة والقبيلة والجماعة إلى الإنسانية بكاملها، ومن الكون والإنسانية معا إلى الله خالق الكون والبشر، ومن الحياة الظاهرة إلى حياة أخرى خالدة لا نهائية يتقرر فيها المصير والمسؤولية النهائية وهكذا تصبح الحياة حلقات متتابعة ووحدة لا تتجزأ حتى تصل إلى اللانهاية، وبذلك تنفتح أمام الفكر آفاق الوجود ممتدة من عالم الشهادة إلى عالم الغيب بلا انقطاع، وتنفتح آفاق النفس والضمير بالشعور بالمسؤولية أمام الله في هذه الحياة وفيما بعدها، وتتسع آفاق المجتمع ممتدة من الأسرة إلى الإنسانية الواسعة بأجناسها وشعوبها وأجيالها وعصورها.

وتتميز القيم الموقتة العارضة – من اللذة والمال والنسب والقربى والعشيرة والقوم والقوة والحكم والسلطان والعقل في حدودها المحدودة لا تتجاوزها – من القيم الخالدة المطلقة التي يتطلع الإنسان إلى الخلود بالاتصال بها، وهي: قدرة الله وعظمته ورحمته ونعمته ورقابته وحسابه، والمثل العليا المنبثقة عن كماله المطلق: كالعدل والحق والخير، وذلك هو التراث المشترك بين الأديان والصعيد الذي يلتقي عليه البشر على اختلاف أجناسهم ودياناتهم.

على أساس هذه النظرة العميقة الواضحة يبني الإسلام مبادئ الأخلاق وقواعد السلوك: انسجام بين الحياة المادية التي يفسح لها مجال النمو والتطور دون الوقوف عندها أو الخضوع لسلطانها والحياة الروحية التي هي الغاية، وتعاون بين الأفراد وكذلك بين الجماعات على أساس من الكرامة الإنسانية المقتضية للمساواة والعدالة الاجتماعية، وأخلاق تقوم على أساس الجهاد المستمر لإقامة التوازن ومنع الطغيان، سواء بين الفعاليات في الفرد أو بين الأفراد في الجماعة الواحدة أو بين الجماعات في المجتمع الإنساني، ليكون الفرد كله والجماعة والإنسانية كلها مرتبطة بالله خاضعة لحكمه متحررة من الخضوع لشهوة أو فرد أو جماعة، ومبادئ تشريعية عامة تصون هذه المبادئ الأخلاقية وتفسح المجال لتطبيقها، وحكم ينفذ هذه المبادئ التشريعية ويحمي تلك المبادئ الأخلاقية ويفسح المجال لرسوخ تلك الأسس الإنسانية العميقة المتصلة الجذور بالخلود واللانهاية من غير إكراه أو تضييق ولا استئثار أو استعلاء.

* بين العرب والإسلام:

لقد كان بين الأمة التي وصفناها والمبادئ التي أوجزناها تلازم وتجاوب، فقد غدا الإسلام بالنسبة إلى العرب المثل الأعلى الذي كانوا من قبله من الضالين الحائرين وعنه غافلين، وأصبح هو نظرتهم إلى الحياة وفلسفتهم في الوجود، والجو الفكري والنفسي الذي في جوه يعيشون. وإذا كانت الصحراء والبادية بيئتهم الطبيعية فإن الإسلام غدا بيئتهم الثقافية والمعنوية.

وإن من الظلم للتاريخ، ومن الخطأ في الفهم، أن نجعل الإسلام بالنسبة لأولئك العرب كالدين بالنسبة إلى الأمم الأخرى بالمعنى الذي يفهمه الأعاجم

قديمًا وحديثًا، أي بمعنى مجموعة من المعتقدات الخاصة بالإله والشعائر العبادية، لقد كان بالنسبة إليهم فلسفة الحياة ومن خلاله ينظرون إلى الكون والوجود وإلى الإله والإنسان، وفيه تتمثل مفاهيمهم للأخلاق وقواعد السلوك وللحكم والروابط الاجتماعية، وهو بالجملة فلسفة شاملة تبنوها ودانوا بها ونظام عام خضعوا لحكمه ونظموا حياتهم على أساسه.

ولئن كان الإسلام عقيدة عامة في الحياة ورسالة إنسانية ذات مبادئ عامة، فإن العرب كانوا هم أول من تلقاها وتبلغها، وهم أول من وعاها وتمثلها ونفذها، منهم خرج صاحب الرسالة وبلغتهم نزل الكتاب، وإياهم خاطب أول ما خاطب، وإياهم كلف بالتبليغ أولًا، ومنهم كان صحابة الرسول ﷺ الناقلون للإسلام والشارحون لمبادئه، ولهم كان الوعد أولًا بالنصر والتمكين في الأرض وارتفاع الذكر، وهم الذين استلموا قيادته الفكرية داعين مبلغين، وقيادته السياسية حماة حاكمين، وعن طريقه امتدت الشخصية العربية عبر الزمان والمكان، وامتدت في العالم متغلغلة بين الشعوب والأقوام ثقافةً وتفكيرًا وسلوكًا، وخلال العصور والأحقاب، وهو الذي نقلهم -بعد أن وحد مفاهيمهم في الحياة في جميع نواحي الحياة وآفاقها- من أفق القبيلة والصحراء إلى الصعيد الإنساني حيث أصبحوا حداة القافلة الإنسانية وقادة الركب وحملة اللواء وبناة الحضارة الإنسانية وأول من قدم النموذج العملي الأول لها، وبه أصبحوا نواة لعالم كبير يحيط بهم كالهالة، فتلتقي مع الأمة العربية على صعيده أمم وشعوب كثيرة في نظرتها إلى الحياة وفلسفتها وفي مبادئها وأهدافها وفي جذور ثقافتها وفي مقاييسها وقيمها وفي نظرتها إلى التاريخ وآمالها في المستقبل. فليست علاقة العرب بشعوب العالم الإسلامي علاقة دينية بالمعنى المفهوم لدى الغربيين، ولا علاقة استعمارية، بل علاقة اشتراك في فلسفة الحياة

ومفاهيمها وفي العناصر الأساسية للثقافة، وينظر العالم الإسلامي إلى العالم العربي كما يقول العلامة الهندي الأستاذ أبو الحسن الندوي "كزعيمه وإمامه".

والإسلام بعد هذا، بمفاهيمه المركزة ونظرته الشاملة ومبادئه العميقة ولغته العربية، هو الذي حال دون ذوبان الأمة العربية في الحضارات الأخرى حتى في أسوأ عصور الانحطاط حين ضعفت قوتها ومناعتها، بل كان على العكس بما فيه من مبادئ إنسانية قابلة للتعميم مظهرًا لتأثيرهم في الحضارات والأمم الأخرى على مر العصور حتى يومنا هذا.

والإسلام هو الذي نقل العرب إلى الطور النهائي من أطوار تطور الأمم، إذ لم يقتصر على جعلها أمة ذات حضارة، بل جعل منها أمة ذات رسالة عالمية، وحملهم هذه المسؤولية العالمية الضخمة، ويشير القرآن إلى ذلك بصراحة إذ يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

ولا بد لي ههنا من وقفة لأصحح مفهومين خاطئين وأنقد فكرتين منحرفتين: **أما الأولى** فتقدم لنا صورة ما تزال تضحكني، صورة قزم يحمل فوق رأسه حملا ضخمًا ثقيلًا، تلك هي الفكرة التي تزعم أن العرب كانوا قبل الإسلام أمة متوحشة منحطة فاسدة الأخلاق تجمعت فيها الرذائل والمفاسد ثم تزعم بعد ذلك أنها هي التي حملت الإسلام ونشرته وأصبحت به أمة متمدنة بل معلمة للأمم. إن هذا التصوير مخالف للحقيقة بل مخالف لنصوص الإسلام نفسه ولمقتضى حكمة الله في هذا الكون، فقد أشار النبي الكريم صلوات الله عليه إلى ما كان عليه العرب من استعداد في قوله: «النَّاس مَعَادِن، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا»(١)، وإلى تميزهم بخصال ومكارم بقوله: «أنا خيارٌ من خيارٍ من خيار»(١)،

(١) رواه البخاري في صحيحه، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ =

وكان يذكر بالإشادة والتعظيم مؤتمرًا عقد في الجاهلية عرف بحلف الفضول تعاقد فيه العرب في مكة على مناصرة الضعيف وإغاثة الملهوف والدفاع عن المظلوم، وقد حضره وكان شابًّا صغيرًا وقال في شأنه بعد بعثته: «لقدْ شهدْتُ في دارِ عبدِ اللهِ بنِ جُدْعانَ حلفًا ما أُحِبُّ أنَّ لي بهِ حُمرَ النَّعَمِ»[(٢)]. وأمر بإكرام سفانة بنت حاتم الطائي لكرم أبيها في الجاهلية، أضف إلى هذا كله أن الصحابة وهم الذين نقلوا لنا الإسلام وكانوا النموذج الأول لتطبيقه كلهم من العرب لا يستثنى منهم إلا نفر ضئيل العدد لم يرد عنه شيء يذكر في التشريع ولا في فهم الشريعة.

أما الفكرة الثانية فهي التي تريد أن تصور تاريخ العرب مجردًا من الإسلام، وتظهر الإسلام كشيء لصيق في تاريخه يمكن فصله بسهولة ويسر دون أن يغير من الحقيقة شيئًا وأن ينظر إليه على أنه مظهر ديني عارض في تاريخهم.

= لِّلسَّآئِلِينَ﴾، رقم (٣٣٨٣) الطبعة السلطانية، ورواه مسلم في باب خيار الناس، رقم (٢٥٢٦).

(١) حديث مشهور في السير، رواه بهذا اللفظ القرطبي في " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام"، وأصله في مستدرك الحاكم في "فضل كافة العرب". بلفظ: «فأنا خيرة من خيرة» من حديث ابن عمر قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ اخْتَارَ الْعَرَبَ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنَ الْعَرَبِ قُرَيْشًا، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، ثُمَّ اخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَنَا خِيرَةٌ مِنْ خِيرَةٍ» رقم (٧٢١٤).

وحديث الاصطفاء رواه مسلم في بَاب فَضْلِ نَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ عَلَيْهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ، بلفظ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ. وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ. وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ. وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» رقم (٢٢٧٦)، وعند الترمذي مثله.

(٢) رواه ابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام (١/ ١٣٤) ومن طريقه أيضا أخرجه الطبري في تهذيب الآثار.

إن أصحاب هذه الفكرة ينكرون واقعًا تاريخيًّا لا يمكن إنكاره، فإن الإسلام مهما يكن مصدره في نظرنا فإن الواقع أنه كان المالئ لتاريخ العرب، وأنه – كما قدمنا – ليس مظهرًا خارجيًّا في تاريخهم بل يمثل أعمق ما تمثلته ووعته عقولهم ونفوسهم، يمثل مفاهيمهم ونظرتهم واتجاهاتهم وثقافتهم وخصائص حضارتهم ومميزاتها. وإن فصله عنهم لا يبقي إلا معالمهم المادية، كما أنه يهبط بهم عن مستوى القيادة والهداية التي أحلهم الإسلام فيها، ويقطع صلتهم بعالم مترامي الأطراف يدين لهم بالولاء ويأخذ بثقافتهم وحضارتهم، ويعرضهم لخطر كبير، خطر الفراغ الثقافي والنفسي الذي يفتح المجال لغزو الشعوبيات الأعجمية.

وقد نسي أصحاب هذه الفكرة أن الأمة كيان موجود يحتاج إلى غاية يسير نحوها ومبدأ يدين به، وأن القومية انتماء وانتساب ووجود تاريخي يحتاج إلى مبدأ وصيغة، وأن القوميات بحسب تطور التاريخ الحديث أصبحت محتاجة إلى غاية إنسانية جامعة ومبدأ موحد لتعيش معا ولتنمو عبقرياتها ضمن إطار إنساني وتعايش سلمي.

ولا شك أن هذه الفكرة مظهر من مظاهر التأثير الأجنبي في العرب لأنها مبنية على نقل بليد لتاريخ الأمم الأخرى إلى تاريخنا، وإحلال لمفاهيمهم الخاصة بهم وبقومياتهم وظروفها وثقافتها محل مفاهيمنا المستقاة من تاريخنا وظروفنا وثقافتنا.

بعد هذا الاستطراد نعود كرة أخرى إلى التاريخ ولكن لنودع تلك الصورة البديعة الرائعة التي التمعت في أفقه، صورة انبثاق الإنسانية من الأرض العربية وإشعاعها في العالم واتساع رقعة الحضارة الإنسانية التي كان الإسلام صيغتها والعرب حملة لوائها والشعوب الدائرة في فلكهم الأعوان والعاملين في بنائها، تلك الصورة التي تختفي وراء سحب في الأفق فلا تبدو إلا كالظلال والأشباح البعيدة مدة قرون طويلة وذلك منذ انفصل العرب عن قيادة الركب وتعليم الشعوب، فانقلب

الإسلام على أيدي غيرهم من عقيدة حية خصبة بالقيم الخالدة إلى جدل كلامي، ومن عبادة هي مظهر تجاوب الإنسان مع عقيدة الإيمان بالله والخلود إلى مظاهر وأشكال وأقوال، ومن عدالة في التشريع إلى نصوص جامدة، ومن حكمٍ شوريٍّ؛ الحاكم فيه مسؤول لا صاحب امتيازات إلى استبداد مطلق، ومن قيم روحية وجهاد في سبيلها إلى زهد هو انعزال وفرار من المعركة. ومن وحدانية محرِّرة للبشر موحدة لهم إلى وثنيات مفرقة، ومن مبادئ عامة مرنة واتجاهات نحو أهداف إلى تفصيلات وجمود عند الجزئيات.

تلك هي العهود التي استعجم فيها الإسلام وشُوِّهَ جماله وقُلبت قيمه ومقاييسه وعطلت روحه، واستبدل بجوهره أشكالُه، وأسيء فهمه وتطبيقه، فضاقت آفاق الفكر وانحطت الأخلاق وفشا الاستبداد وانتشرت العصبيات، وتعطلت سنن الحياة وأغفى الشرق على هذه الجاهلية الجديدة إغفاءة طويلة لم يفق منها إلا على أصوات جيوش الاستعمار وأضواء هذه المدنية الجديدة القادمة من الغرب وارث الثقافة العقلية من حضارة اليونان والعرب، والوثنية المادية من حضارة الرومان، بعد أن جرد الأولى من قيمها الأخلاقية وفصل عن الثانية روح المسيحية وجوهر تعاليمها الإنسانية، وسار مستمرا في تطوره العقلي المادي حتى وقف حيث وقف اليوم عملاقًا مجنونًا بيده قذيفة خطرة تكاد تنفجر فتقتله وتقتل ما حوله من الأحياء وأسباب الحياة.

وهنا يأتي دور الأمة العربية من جديد لتذّكر بعد أمة وتعود سيرتها الاولى، هادية مرشدة تنقذ الإنسانية من شفا جرف هار، تتحمل المسؤولية وتصل حبالها بالله، مستمدة من قوته التي لا تتناهى، مستندة إلى استعداد أصيل وتجربة سابقة ناجحة وجذوة وإن خبت لم تنطفئ، وإلى مبادئ عميقة الجذور تحررها وتحرر

العالم في آن واحد، مستفيدة من موقعها بين القارات ومكانها المتوسط بين حضارات الشرق الروحية الانعزالية أو الوثنية الابتدائية وحضارات الغرب العملاق الأحمق المشوه الخلقة، ومن مكانتها المعنوية بين شعوب تلتف من حولها وتنهل من ثقافتها وتشدها بها أواصر الفكر والتاريخ والأهداف والمقاييس والقيم، ومن رصيد من الحضارة لم يستنفد ولم تفقد الأيام على مرها قيمته.

إن الأمة العربية مدعوة من جديد لتحمل مسؤولية عالمية ضخمة، ولتحمل مشكلة الإنسانية وتسير مرة أخرى على هدى من ربها في رأس القافلة وطليعة الركب الإنساني هادية مرشدة.

إن العالم اليوم يتلظى بنار المادية، سواء أخذت شكل الحرية الفردية وطغيان الشهوة والأثرة والرأسمالية الجشعة وظلم الطبقات واستعمار الشعوب، أو شكل التنظيم الجماعي والتسيير الآلي للأفراد وقصر الحياة على الأهداف المادية وما يخدمها في اشتراكية مادية.

إنها رسالة تستمد وحيها من ماضينا وتحيط بآفاق حياتنا لتحل مشكلاتها وتقيم التوازن الذي اختل. إنها روحية الجذور والغايات تتصل بالله في بداياتها ونهاياتها، إنسانية المبادئ والمفاهيم، أخلاقية الأهداف والمقاصد، إيجابية السلوك، مجاهدة في سبيل أهدافها الأخلاقية والغايات الروحية، واعية للمشكلات الزمنية، تعيش في ظروف عصرها وجوِّه وشروطه، صادرة في حلولها عن وعي إنساني عميق وروحانية تتصل بالله لا عن ردود فعل آنية تردها يمينا ويسارا أو عن تأثيرات خارجية تدفعها لتبني أهداف وقيم لا تصلح أن تكون أهدافًا ثابتة وقيمًا مطلقة.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

إن أبرز أعراض الحضارة الحديثة المرَضيّة تتجلى في طغيان الشهوات والأهواء في الفرد "ظلم الانسان لنفسه"، وفي الجور الاقتصادي واستئثار أفراد أو طبقة من الناس بالأموال والمنافع، وفي الظلم الاستعماري واستعباد الشعوب بعضها لبعض في شكل صراع بين الأمم، وما يتبع هذه المظالم الفردية والطبقية والقومية من أنواع العصبيات وضروب التنافس الحربي أو الاقتصادي، وما ينتج عنه من مآس بشرية ونكبات.

إن هذه الآفات والأمراض كلها لا تداوى من ظاهرها بسَنِّ نظم وقوانين، ولكن من الأعماق والجذور، ولا يزيلها إلا تغيير عميق في النفوس يبنى على نظرة صحيحة وفلسفة قويمة للحياة، تصل الحياة الإنسانية بغاياتها البعيدة وجذورها العميقة، بمصدرها ومصيرها، وهذا هو الذي استهدفته الديانات السماوية في تراثها الروحي المشترك القائم على عبادة الله وحده وتجنب الطواغيت، وجاء به الإسلام واضحًا قويًّا معتبرًا إيّاه الصعيد المشترك الذي يصح أن تلتقي عليه الديانات.

ولا بد مع هذا الأساس الروحي العميق وهذه النظرة الاعتقادية من نظام لحياة الفرد والجماعة يكون منسجمًا مع هذا الأساس منسجمًا مع الغايات والأهداف، فالحياة وحدة لا تتجزأ وكل أجزائها يؤثر بعضها في بعض، ولهذا لا يجوز النظر في حلولها مجزأة منفصلة، فالفلسفة والعقيدة وقواعد سلوك الفرد ومناهج توجيه الجماعة وقواعد التشريع وطريقة الحكم والسياسة تؤلف بمجموعها كلًّا يؤثر بعضه في بعض، ولهذا وجب أن يكون بينها انسجام وتوافق وأن يجمع بينها نظام شامل كليّ وبهذه الطريقة المزدوجة - التي لا تكتفي بالنظام الظاهري والإصلاح التشريعي

فيكون عملها هدرًا، ولا بالإصلاح الروحي المنعزل عن نظام حياة الإنسان فردًا وجماعةً - يمكن أن تتحرر البشرية من ظلم المجتمع والقوميات في العالم لتسير نحو إنسانية حقيقية تصدع بأمر الله وتخضع لرقابته وتتوجه نحو الغايات البعيدة التي قدرها لها.

إن العالم اليوم منتظر ومترقب لحضارة من نوع جديد، لنموذج إنساني، ولمبدأ ينشئ إنسانية سعيدة ولرسالة قابلة للتعميم تجتمع عليها الأمم متعاونة شاملة لنواحي الحياة. وهذه الرسالة محتاجة إلى أمة تستطيع تمثلها والاضطلاع بعبئها والتبشير بها. أما هذه الأمة فقد اختيرت منذ الأزل، إنها الأمة العربية التي حدد الله مسؤوليتها في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وفي قوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأما الرسالة فهي الإسلام بالمعنى الذي فهمه العرب الأوّلون، فشادوا به حضارةً وأقاموا عدلًا ونشروا علمًا ونظموا مجتمعًا وجمعوا الأمم على صعيده الإنساني، وبه وقفت الأمة العربية فلم تذب شخصيتها في القديم أمام الرومان والفرس واليونان، وحديثًا أمام الفرنسيين والإنكليز وغيرهم.

* شروط لا بد منها:

ولا بد لقيام الأمة العربية بعبء هذه الرسالة على نطاق عالمي من شروط يجب تحقيقها وهي:

أوّلًا: إنهاء المعركة مع الاستعمار والجهاد في سبيل تصفيته في الأرض العربية في فلسطين والجزائر وسائر أرض المغرب وفي جنوب الجزيرة.

ثانيًا: تحرير البلاد العربية من نفوذه في البلاد التي يحكم فيها أولياؤه وأعوانه من خدام الاستعمار.

وبذلك تكون الأرض العربية قاعدة انطلاق وإشعاع.

ثالثًا: تدارك التخلف الاجتماعي والاقتصادي الذي وقعنا فيه منذ مئات السنين ومنذ العصور التي شوّهت فيها رسالة الإسلام.

رابعًا: إحداث ثورة في المفاهيم للتخلص من الجمود الناشئ عن الفهم الأعجمي للإسلام في العصور التي تخلى فيها العرب عن مهمة القيادة الفكرية والسياسية، وللتخلص من التقليد والتبعية للتفكير الأجنبي على اختلاف مصادره وأشكاله، والعودة إلى القيم الحيوية والمفاهيم الصحيحة التي من خلالها فهم العرب الأولون الإسلام. وبذلك يتم الوعي الذاتيّ والسيادة الحقيقية الكاملة.

خامسًا: اعتبار الإسلام بالنسبة إلى أبناء الأمة العربية على اختلاف أديانهم، تراثهم القومي ومادة ثقافتهم، وإيقاظ الشعور الذاتي بمسؤولية حمل الرسالة العالمية في نفس كل عربي.

سادسًا: تعاون المنتمين إلى الإسلام والنصرانية من أبناء العربية تعاونًا وثيقًا، واعتبار الإسلام والنصرانية موجتين روحيّتين متلاحقتين ظهرتا من الشرق العربي، ومما يعين على ذلك تخليص الإسلام من المفاهيم الدخيلة في العهود الأعجمية، وتخليص النصرانية من الروح الغربية والعودة بها إلى روحها الشرقية، واعتبارِ الغرب وارثِ الوثنية الرومانية وحضارته المادية الحديثة خطرًا على المعسكر الروحي أو على الديانتين معًا.

سابعًا: تعاون أصحاب الشعارين، العروبة والإسلام، على أساس فهم الأولين ما بين العرب ورسالة الإسلام من تلازم وتجاوب، وتبني الفهم العربي الأصيل للأمة، وفهم الآخرين مكانة العرب في رسالة الإسلام سواء في التاريخ أو العصر الحاضر، وتبني الفهم العربي السليم الذي فهم به الصحابة الإسلام.

ثامنًا: التعامل مع الدول الأجنبية على أساس معاداة العدو ومصادقة الصديق دون الاندماج أو التبعية، ورسم خطة للتعاون مع الشعوب التي تربطنا بها روابط الثقافة والتاريخ ورابطة الاشتراك في فهم الحياة وفلسفتها من الشعوب الإسلامية ومعاونتها على تحررها من الأجنبي ومن حكم عملاء الأجنبي من أبنائها.

العناصر الخالدة من تراث الأمة العربية[١]

تبدأ الأمة العربية اليوم مرحلة جديدة من مراحل نهضتها هي أدق وأخطر من المرحلة التي اجتازتها، ذلك أننا كنا في جهاد لتحرير أرضنا ونيل استقلالنا، ولا نزال كذلك في مرحلة هذا الجهاد في بعض أقطار العروبة، ولكن الجمهورية العربية - وهي طليعة هذه الأقطار في اجتياز هذه المرحلة- قد بدأت مرحلة جديدة هي مرحلة التحرر الفكري والاستقلال في ميدان المبادئ والأفكار، والخروج من الوصاية والحماية ودوائر النفوذ في هذا الميدان.

لقد مضى الزمن الذي كان فيه أكثرنا يفهم الاستقلال فهمًا ماديًّا ضيقًا ويقصره على الأرض ويقنع بأن تسلم له يتصرف بها، أوَ ليس لنا مع أرضنا ملك آخر هو تراثنا المعنوي واستقلالنا الفكري وحريتنا في طريقة البناء في هذه الأرض؟ أوَ ليست كل محاولة لانتقاص حقنا في هذه الحرية بأي طريقة من الطرق، والنيل من هذا الملك وذلك التراث ضربًا من الاستعمار والاعتداء لا يقل أبدًا عن الاعتداء على أرضنا؟

إن الذي يمكن الغريب الأجنبي من أرضنا، يسلمه منها شبرا، أو من سيادتنا يحكمه في رقابنا، أو يحكم في بلدنا لحسابه ومصلحته، والذي يمكنه من قتل خصائصنا وغرس ما يريد من أفكار في عقولنا الغضة الحديثة العهد بالتفتح واليقظة، كل أولئك أتباع وخونة وأعوان للأجنبي على أبناء بلادهم. إن الأمة التي قضي على

(١) ألقيت هذه المحاضرة في جامعة القاهرة، في الندوة الثقافية التي نظّمتها وزارة التربية والتعليم المركزية في شهر تمّوز ١٩٥٩م. (المؤلف).

شخصيتها وروحها وخصائصها تسلم أرضها ولو كانت مستقلة، والأمة التي تحافظ على خصائصها تطرد الأجنبي وتسترد الأرض مهما طال الزمن. لقد دب فينا **الوعي لأرضنا وأنفسنا** فقمنا ندافع عن الأرض ومن عليها من أبناء قومنا بعد أن تم شعورنا بهذا الجسم الحي الذي هو جسمنا الممتد على أرض العروبة ثم دب فينا الوعي لشخصيتنا المعنوية ولمبادئنا وأخذنا نشعر **بشخصيتنا الممتدة عبر الزمان** نتلمسها في أفكارنا ومشاعرنا واتجاهاتنا وعقائدنا المتسلسلة الموروثة منذ عصور وعصور. لقد استيقظت **ذاكرتنا الجماعية** بعد أن استيقظ حاضرنا.

إن من فضل الله على الجمهورية العربية المتحدة أنها في مقدمة ركب العروبة في اجتياز مراحل التحرر المادي والمعنوي، والقضاء نهائيًّا على عهد التبعية سواءً أكانت سياسية أو اقتصادية أو فكرية، وبذلك انفسح المجال لظهور شخصيتنا وذاتيتنا وخصائصنا الأصيلة. فما هي معالم هذه الشخصية وتلك الخصائص؟

إن التحرر مرحلة سلبية يعقبها مرحلة إيجابية **هي البناء**، البناء المادي والمعنوي. إن علينا بعد انتهاء التبعية أن نختار بأنفسنا نظامنا السياسي ونظامنا الاقتصادي ونظامنا الفكري. وليس معنى ذلك الانعزال ولا الجهل ولا مجافاة أنظمة الأمم الأخرى، ولكن معناه حرية الاختيار، اختيار ما يلائمنا دون الشعور بالنقص واعتقاد التفوق في الآخرين، اختيار ما يلائم شخصيتنا ولا يشوه معالمها. إن الحكومة المشرفة على توجيهنا وحمايتنا لا تستورد من الخارج ما يكون في بلدنا من جنسه، ولا ما نستطيع أن نصنعه بأنفسنا، فلماذا لا نطبق هذه القاعدة في ميدان الفكر والمعتقدات أيضا؟ أفلا يجب أن نملأ نحن الفراغ الناشئ عن التحرر لئلا يتجدد الغزو من جديد؟ فكيف نملؤه؟ هل عندنا من عناصر البناء ما يصلح لبنائنا

الذي نقيمه؟ هل لنا من ثروة موروثة أو رؤوس أموال فكرية يمكن أن نستثمرها ونستفيد منها؟

لقد كان العرب يجعلون المال صنفين: الطارف، وهو المستحدث، والتليد، وهو الموروث منذ الولادة، ويجعلون للإنسان نوعين من الانتماء: النسب، وهو الانتماء إلى الآباء، والحسب، وهو العمل الذي يقدمه الإنسان بنفسه، وقد قال شاعرهم:

لَسنا وَإِن أَحسابُنا كَرُمَت * مِمَّن عَلى الأَحسابِ يَتَّكِلُ

نَبني كَما كانَت أَوائِلُنا * تَبني وَنَفعَلُ مِثلَ ما فَعَلوا

ومع أنّا من أغنى الأمم تراثًا، لا أحب أن أسترسل في هذا النوع من الفخر، فالتراث هو الموروث، أفنأخذه لمجرد كونه موروثًا دون النظر إلى صلاحه للحياة والبقاء؟ أفلا نكون بذلك مخالفين للحق بل لتراثنا نفسه؟ أن نقف موقف وثنيي العرب من دعوة الإصلاح الكبرى حين قالوا ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وكان الموقف الصحيح هو موقف الرسول العظيم إذ أُمر أن يقول: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤].

إننا يجب أن نعرف تراثنا وأن نعرف ما فيه من عناصر حية وقيم خالدة تصلح أن تكون عناصر في بنائنا الجديد. إننا نقف وفي أيدينا أدوات البناء لنبني بها لحاضرنا ومستقبلنا، وعيوننا تتلفت وتبحث من حولنا، وفيما وراءنا من العناصر المتينة الصالحة.

لقد كان لنا تراث ساهم في الماضي في إقامة حضارة إنسانية حضنت العلم ودافعت عن العدالة وأقامت موازين الحق وسوَّت بين الناس، فهل يستطيع هذا

التراث اليوم أن يساهم في إقامة حضارة جديدة في ظروف الإنسانية الحاضرة؟

إن الإنسانية كلها اليوم في أزمة: فقد رقىّ الإنسان الوسائل ولم يسمُ بالأهداف والغايات. تحسنت وسائل العيش وتردى الضمير الإنساني، وغدا الإنسان عبدًا للآلة التي صنعها بيده، وطغت الأهداف المادية على البشرية جمعاء وطبعت الحضارة الحديثة بطابعها، وهي على اختلاف أشكالها لا تعرف إلا باسم مادي، فهدفها - سواء أكانت رأسمالية أم اشتراكيّة- المادة وحدها، والخلاف في طريقة توزيع الثروة المادية كما تدل عليها أسماؤها وسماتها لا في أهداف الحضارة وغاياتها البعيدة وقيمها الأساسية. إن التنافس والخلاف في أنظمة خارجية للحكم أو لتوزيع الثروة؛ أما الجذور النفسية لهذه النظم والصلات التي تصلها بالضمير الإنساني فمتقطعة مهملة متروكة.

فهل نستطيع بما عندنا من تراث أن نساهم في حل معضلة الإنسانية؟ تتنافس القوميات اليوم على الثروات؛ وتتعالى بالعروق؛ وتتفاخر بالأمجاد؛ وتتزاحم في المطامع؛ وتتبارى في التسلح؛ وتستحل كل منها في سبيل مجد موهوم أرواح الآخرين وأموالهم ومقدساتهم وأراضيهم، وتتجدد على مسرح العصر الحديث مآسٍ لا تعد مآسي العصور الغابرة بالنسبة إليها شيئا، ذلك أنها اتخذت من قومياتها غاية ما بعدها غاية وداست الحق والعدل والرحمة في سبيل عصبيتها.

فهل نستطيع بما في تراثنا من عناصر الخير والإنسانية أن نساهم بنصيب في إيجاد صعيد إنساني تلتقي فيه الشعوب وتتعاون فيه القوميات دون أن يطغى بعضها على بعض؟ وحينئذ فقط نستطيع أن نفاخر بهذا التراث والأمة التي ننتسب إليها. فالقوميات إنما تتفاضل بما تقدمه كل واحدة منها للبشرية من فكرة إنسانية وما تحققه

من خطى نحو الهدف الإنساني؛ ومن تخفيف المآسي الإنسانية وتحقيق للعدالة وارتفاع بالضمير الإنساني. لم يعد من المستساغ أن تنادي كل قومية: أنا فوق الجميع، أو أن تفاخر بعرقها. إن البشرية تتنزى جروحها وهي تنتظر من يداويها ويواسيها فهل تتقدم العروبة بتراثها الإنساني لتداوي البشرية المكلومة التي ضاعت بين الرأسمالية والاشتراكية؟

وهنا تبدو لنا وظيفة الأمة العربية ورسالتها. إن رسالتها هي تحقيق الإنسانية في العالم وربطها بمصدر وجودها وإيقاظ ضميرها وإشعار الإنسان بمسؤوليته كإنسان مستخلف في هذه الأرض ليس إلهًا طاغيًا ولا عبدًا ذليلًا مسترَقًّا.

لقد عرّف عربي بسيط رسالة أمته بعمق وإيمان وجزم بأكثر مما يعرف فلاسفة القومية اليوم، فقد دخل أحد الفاتحين من العرب في الفتح الإسلامي الأول على قائد جيش الفرس في قصره وبيده رمح يدق به الأرض فيخرق ما عليها من الطنافس الحريرية دون أن يبالي؛ وجرى بينهما حديث حاول فيه الفارسي أن يغريه بالملذات والنعيم فكان جواب العربي: «لقد جئنا لنخرج النّاس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» ومعنى قوله هذا أن العدالة هي الهدف، والإيمان بالله هو المحرر للإنسان من عبادة البشر وعبادة المال، وهو السند الحقيقي للعدالة والدافع إلى تحقيقها.

إن تحديد معالم رسالة الأمة العربية يقتضينا دراسة ماضينا وتراثنا، كما يقتضينا معرفة الظروف المحيطة بنا، والعالم الذي يعيش من حولنا، لندخل في حلبة الصراع على علم ولنكون عنصرًا عاملًا على تغليب الحق على الباطل والعدل على الظلم والأمن على الاعتداء والإنصاف على الطغيان.

* عناصر تراثنا:

لنسرح الطرف عبر القرون ولنبحث عن العناصر الإنسانية والقيم الخالدة من تراثنا: إن الإيمان بالقيم الخلقية والمعاني المثالية في الحياة هو أول خط من خطوط هذا التراث. فالعربي منذ عهد الجاهلية يتجه نحو المعاني المثالية ويضعها في مرتبة أعلى من المقاصد المادية، ويحتقر من يجعل همه في الحياة المأكل والملبس.

لَحى اللهُ صُعلوكًا مُناهُ وَهَمُّهُ * مِنَ العَيشِ أَن يَلقى لَبوسًا وَمَطعَما
وَلِلَّهِ صُعلوكٌ يُساوِرُ هَمَّهُ * وَيَمضي عَلى الأَحداثِ وَالدَهرِ مُقدِما[1]

(عروة بن الورد)[2]

إن المال يزول ولكن المكرمة باقية:

أَماوِيّ إِنَّ المالَ غادٍ وَرائِحٌ * وَيَبقى مِنَ المالِ الأَحاديثُ وَالذِكرُ[3]

(حاتم الطائي)

(١) لحاه الله: أي قبّحه أو لعنه، والصعلوك: هو الفقير الذي لا مال له، والصعاليك في الجاهلية هم الشعراء الفرسان الذين تمرّدوا على قوانين المجتمع والقبيلة، وعاشوا مستقلين عن المجتمعات الرسمية، واختاروا حياة الفقر، وامتهنوا السطو على أموال الأغنياء ومساعدة الضعفاء والفقراء، واشتهروا بالدعوة إلى محاسن الأخلاق. منهم: الشنفرى والسُّليك التميمي وعروة بن الورد.

(٢) عُرْوَة بْنُ اَلْوَرْدْ اَلْعَبْسِيّ (توفي ١٥ ق.هـ/ ٦٠٧ م) شاعر من شعراء عبس في الجاهلية وفارس من فرسانها، اشتهر بسلوكه مسلك الصعلكة، كان يسرق ليطعم الفقراء ويحسن إليهم، ويعدّ ذلك من مكارم الأخلاق، روي أن معاوية بن أبي سفيان قال: "لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوّج إليهم"، وروي عن عبد الملك بن مروان أنه قال: (من قال إنّ حاتمًا أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد).

(٣) (أماويُّ) هو خطاب لزوجته ماوية بنت عفير، وهذا البيت من قصيدة مشهورة لحاتم في الحث على مكارم الأخلاق.

وهو يفضل الجوع مع العز على العيش الذليل:

أُديـمُ مِطـالَ الجـوعِ حَتّـى أُميتَـهُ * وَأَضـرِبُ عَنـهُ الـذِكرَ صَـفحًا فَأُذهَـلُ
وَأَستَفُّ تُربَ الأَرضِ كَيلا يَرى لَهُ * عَلَيَّ مِنَ الطَولِ اِمرُؤٌ مُتَطَوِّلُ
وَلَولا اجتِنابُ الذَّمِّ لَم يُلفَ مَشرَبٌ * يُعاشُ بِهِ إِلّا لَدَيَّ وَمَأكَلُ
وَلَكِنَّ نَفسًا حُرَّةً لا تُقيمُ بي * عَلى الضَيمِ إِلّا رَيثما أَتَحَوَّلُ

(الشنفري)

ولذلك استعذب العربي الموت فرارًا من الذل والعار وفضل الإقدام:

تَأَخَّرتُ أَستَبقي الحَياةَ فَلَم أَجِد * لِنَفسي حَياةً مِثلَ أَن أَتَقَدَّما

عُرف العربي منذ الجاهلية بالإباء والمروءة، والعفة عن الأعراض، والكرم وحماية الجار والحليف، والإيثار ومشاركة الناس.

ومن أجمل ما قيل في هذا الموضوع قول عروة بن الورد:

أَتَهزَأُ مِنّي أَن سَمِنتَ وَأَن تَرى * بجسمي مسَّ الجوعِ والجوعُ جاهِدُ
فَإِنّي اِمرُؤٌ عافي إِنائِيَ شِركَةٌ * وَأَنتَ اِمرُؤٌ عافي إِنائِكَ واحِدُ
أُقَسِّمُ جِسمي في جُسومٍ كَثيرَةٍ * وَأَحسو قَراحَ الماءِ وَالماءُ بارِدُ

وهم لا يكتفون بمنع الظلم عن أنفسهم حتى يمنعوه عن جارهم وحليفهم:

وما جارُ بيتي بالذليلِ فَتُرْتَجى * ظُلامَتُه يومًا ولا المتهضَّم
إنا لعمرك لا يضام * حليفنا أبدا لدينا

بل يتضامنون معه على الخير والشر:

لا يَســأَلونَ أَخــاهُم حــينَ يَنــدُبُهُم * فــي النائِبـاتِ عَلـى مـا قـالَ بُرهانـا

فينعم بجوارهم ويشاركهم سراءهم:

وَهُـــمْ رَبيـــعٌ لِلمُجـــاوِرِ فـــيهُمُ * وَالمُـــرمِلاتِ إِذا تَطـــاوَلَ عامُهـــا

ولكن العربي مع هذا لا يهمل مطالب العيش ولا السعي وراء الرزق، وليست مثاليته سلبية ولا خيالية ولا بعيدة عن الفطرة، فالفقر مقرون عادة بالذل وهو يكره الذل:

فَلَلمَـوتُ خَيـرٌ مِـن حَيـاةٍ يُـرى لَهـا * عَلـى الحُـرِّ بِـالإِقلالِ وَسـمُ هَـوانِ

ولكنه لا يكون عبدًا للمال، بل المال خاضع لأغراضه مسخر لأهدافه الطيبة:

إِذا كـانَ بَعـضُ المـالِ رَبًّـا لِأَهلِـهِ * فَـإِنّي بِحَمـدِ اللَـهِ مـالي مُعَبَّـدُ

يُفَـكُّ بِـهِ العـاني وَيُؤكَـلِ طَيِّبًـا * وَيُعطـى إِذا مَـنَّ البَخيـلُ المُصَـرِّدُ

(حاتم الطائي)

وبالجملة فإن **العربي كان في الجاهلية متّجهًا اتّجاهًا مثاليًّا ولو أخطأ الهدف وضل السبيل** فأسرف وبالغ ووضع الأمور في غير مواضعها، فأهدر المال بدافع الكرم وقتل البنت بدافع توهم العار ودافع عن حليفه ولو كان ظالمًا، وبدأ غيره بالظلم دفعًا للظلم عن نفسه، وبذلك استحق أن يوصف **بالجهل** الذي هو ضد الحلم والحكمة.

زد على ذلك أن هذا الاتجاه المثالي كان في إطار القبيلة وفي نطاق الصحراء. فلما عمت الجزيرة رسالة الإسلام واستجاب لها العرب، تجاوب الاستعداد المثالي العربي مع مثالية هذه الرسالة وانتقل الاستعداد والاتجاه المثالي إلى تحقيق المثل

الأعلى وتحديد الهدف ووضوح الغاية. فأصبحت التضحية بالنفس في سبيل إحقاق الحق وتحقيق العدالة، وأصبح الكرم مالًا يجبى ويوزع بالعدل وبحسب الجهة والحاجة، وغدا الإباء غضبًا للحق وثورة على الظلم وإرضاءً للفضيلة وإنكارًا للمنكر؛ وعاد التضامن مع القبيلة تضامنًا مع المجتمع كله والعصبية للقبيلة عصبية للحق وأصبح حب الحق والجهاد في سبيله أسمى من حب الأسرة والعشيرة والمال: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ [التوبة: ٢٤].

وغدا السعي في طلب الرزق جهادًا وعبادةً؛ والتمتع بملذات الحياة المشروعة سنةً إلهيّةً: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف:٣٢]، ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: ١٦٨].

ولسلوك الإنسان في هذه الحياة غاية بعيدة أعلى من المجد أو الملك وارتفاع الذكر: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧].

لقد نقل الإسلام مثالية العرب من صعيد الصحراء إلى صعيد البشرية ومن إطار القبيلة إلى إطار الإنسانية ومن الاتجاه غير المحدد الهدف إلى مثالية شاملة منظمة رائعة حققت معجزة التاريخ التي أراد الله أن يكون العرب أداتها والمنفذين لها.

* مظاهر الاتجاه المثالي عند العرب:

١- وإن مظاهر هذا الاتجاه المثالي عند العرب **تكريم الفكرة وتخليدها** وتكريم الأشخاص بما فيهم من المكارم لا بأجسادهم المادية؛ ولذلك لم يؤلِّه العرب الأشخاص كما فعل اليونان والهنود ولا أقاموا التماثيل المادية ولا اخترعوا الأساطير

الكاذبة، بل حققوا المثالية في قصصهم الواقعية وخلدوا أبطالهم من غير تماثيل بمكارمهم الخالدة. فلو قلت في العرب حاتم لقيل الكرم؛ ولو قلت عنترة لبرزت الشجاعة؛ وكذلك بعد الإسلام فمحمد رسول الله ﷺ إلى الإنسانية خلدته رسالته ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وقد قال أبو بكر: (من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات؛ ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت).

٢- ومن مظاهر هذا الاتجاه المثالي؛ **الشعور الإنساني** الذي يدفع إلى تحقيق الخير والتحسس النفسي العميق لتحقيق الخير للناس جميعًا وإشراكهم فيه، قال حاتم:

إِذا ما صَنَعتِ الزادَ فَالتَمِسي لَهُ * أَكيلًا فَإِنّي لَستُ آكِلَهُ وَحدي
أَخًا طارِقًا أَو جارَ بَيتٍ فَإِنَّني * أَخافُ مَذَمّاتِ الأَحاديثِ مِن بَعدي
وَإِنّي لَعَبدُ الضَّيفِ ما دامَ ثاوِيًا * وَما فِيَّ إِلّا تِلكَ مِن شيمَةِ العَبدِ

ثم جاء الإسلام ليعلن أن «الخَلْقُ كلُّهم عيالُ اللهِ فأحبُّهم إليه أنفعُهم لعيالِه»(١) «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَبِيتُ شَبْعَانَ وَجَارُهُ إِلَى جَنْبِهِ جَائِعٌ»(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]، بل يتجاوز الإسلام الشعور الإنساني إلى الشعور الحيوي أي مشاركة كل ذي حياة «في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ»(٣)

(١) رواه ابن أبي الدنيا والبزار وأبو يعلى والطبراني عن أنس عن النبي ﷺ.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، والحاكم والطبراني وأبو يعلى من طريق ابن عباس وعائشة عن النبي ﷺ.

(٣) رواه البخاري ومسلم، من حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: =

«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»(١).

٣- إن هذا الاتجاه المثالي والإيمان بالقيم الخلقية في الحياة بلغ ذروته وأرفع أشكاله في الشعور العميق بالصلة بمصدر الكون وموجده، واستشفاف وحدانية هذا المصدر من وراء المظاهر الطبيعية المتعددة الكثيرة، والشعور العميق بالمسؤولية أمامه شعورًا جعل ضميره حيًّا يقظًا، والإيمان بالعدالة المطلقة في حياة خالدة في دورة أخرى لهذا الوجود.

إن عقيدة الإيمان بالله الواحد قديمة في العرب قبل أن تأتي اليهودية بل قبل أن يخلق اليهود. فإنها ترجع إلى عهد إبراهيم حين هاجر من بين النهرين إلى الجزيرة وتزوج فيها؛ ورغم تسرب الوثنية إلى العرب بعد ذلك فإن الإيمان بخالق الكون الإله الواحد؛ والإيمان بالجزاء والمسؤولية؛ كان معروفًا فاشيًا عند العرب في الجاهلية كما يصرح بذلك القرآن وكثير من الشعر الجاهلي. والإسلام إنما جاء مجددًا وباعثًا لهذه العقيدة ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

إن هذه العقيدة حررت العربي قديمًا وحررت العالم بأسره بعد الإسلام من عبادة الطبيعة من جهة؛ ومن عبادة البشر بعضهم لبعض من جهة أخرى، وجعلتهم كلهم متساوين يشتركون في كونهم مخلوقات الله مسؤولين ومحاسبين مهما كانت قيمتهم؛ ولذلك أكد القرآن صفة البشرية للرسول وكونه عبد الله.

= فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ».

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

إن تحرر البشر من الخضوع للملوك خضوع العبادة، ومن التذلل لأرباب الأموال وأصحاب القوة والنفوذ والسلطان؛ إنما كان نتيجة لهذه العقيدة التي سوت بين البشر جميعًا.

لقد كان لهذه العقيدة المثالية عقيدة الإيمان بالله وبالمسؤولية العظمى أمام الله وتساوي الناس جميعًا بالنسبة إليه آثار عميقة جدًّا من الناحية الفكرية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية.

٤- إن الاتجاه المثالي الذي سار فيه العربي في الجاهلية والقيم المثالية التي آمن بها في الإسلام لم يقف منها موقفًا نظريًّا، بل عمل على تحقيقها وسلك إلى ذلك طريق الجهاد، فالجهاد هو بذل الجهد بجميع صوره وأشكاله لتحقيق الخير والمثل الأعلى. فلا يقف العربي حياديًّا في صراع الخير والشر والحق والباطل والعدل والظلم، بل لا بد من أن يشترك في الصراع لينصر الخير والحق والعدل.

لقد عرف العربي قبل الإسلام بالحرب والقتال في سبيل رد الظلم وحماية الجار والحليف والخروج من الذل إلى العز، كما عرف بعد حمله رسالة الإسلام بالجهاد، جهاد النفس عن الهوى، وجهاد اللسان وجهاد السيف في سبيل إحقاق الحق وإقامة العدل ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥].

ولذلك كانت فتوحات العرب بعد الإسلام تحريرًا للشعوب من ظلم الملوك المتألّهين والإقطاعيين والمستبدين ولم تكن في سبيل تكوين إمبراطورية ولا الحصول على مكاسب أو أمجاد قومية.

والقرآن الكريم واضح في أن غاية الرسالة والنبوات إقامة العدل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

إن الإسلام نقل القتال من الصراع القبلي في الجزيرة إلى الجهاد في سبيل تحرير البشرية من أنواع العبوديات وتحقيق العدالة والمساواة بين الناس؛ ولذلك قابلته الشعوب بالترحاب ولا تزال تعتبر تاريخ دخول الجيوش الإسلامية إليها تاريخًا لتحريرها وهدايتها.

٥- على هذه **الأسس الخلقية المثالية والإيمانية** قامت حضارتنا، وعليها أقيمت نظمنا وبني صرح مجتمعنا، وعنها انبثقت مفاهيمنا السياسية والاجتماعية والأخلاقية، وبهذا الأساس العميق المتصل بالحقائق العامة في الوجود من جهة وبالنفس الإنسانية والضمير من جهة أخرى تتميز مؤسساتنا ومنظماتنا الاجتماعية، ولنضرب على ذلك مثلًا مفهومنا الأصيل الموروث **عن نظام الحكم والسياسة** ويتراءى هذا المفهوم من الأقوال التالية:

كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري وكان واليًا على بعض الأقاليم: (إنما أنت امرؤ منهم؛ وقد جعلك الله أثقلهم حملًا؛ وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في مأكلك وملبسك ومركبك ليس للمسلمين مثلها، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة نزلت في واد خصيب فلم يكن لها هم إلا في السمن، وإنما حتفها في السمن. واعلم أن للعامل مردًّا إلى الله، فإذا زاغ العامل زاغت رعيته، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته، والسلام).

ودخل أبو مسلم الخولاني على معاوية فقال: (السلام عليك أيها الأجير)، فقالوا: قل أيها الأمير! فأعادها ثلاثًا ثم قال: (إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم، فإن أنت داويت مرضاها وجمعت أولاها على أخراها؛ وفاك سيدُك أجرك، وإن أنت لم تفعل عاقبك سيدك).

وقال عمر ردًّا على من أرادوا منه أن يوسع على نفسه من بيت المال: (إنما مثلي ومثل هؤلاء – أي الرعية – كمثل جماعة سافروا فأعطوا نفقاتهم إلى رجل منهم، فهل يحل له أن يستأثر بشيء منها؟! وقال أبو بكر حين حملوه على أن يأخذ مرتّبًا من بيت المال: (يأخذ أبو بكر من بيت المال ويحترف للمسلمين).

من هذا كله استنتج ابن تيمية أن الولاية إجارة ووكالة ونيابة، فليس الحكم تميزًا ولا سيادة ولا استعلاءً، وأسسه التي يبنى عليها هي المسؤولية أمام الناس لا أمام الله فحسب، والشورى والعدل بين الناس دون تمييز في نسب أو قرابة أو دين، وهل من نظرة أسمى وأرقى من هذه النظرة؟

وكذلك مفهوم التضامن والعدالة الاجتماعية والتملك:

فالمال ملك الله والإنسان مستخلف فيه ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧]، ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ [النور: ٣٣]، فليس التملك إذن حقًّا مطلقًا وإنما هو تصرف، للحاكم الذي هو نائب عن المجتمع أن يقيده ويحدده بحسب المصلحة الاجتماعية؛ ويدل على ذلك قول الرسول الكريم مقرونًا باستنتاج أحد الصحابة، إذ قال في موقف من المواقف: «مَن كانَ معهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ به علَى مَن لا ظَهْرَ له، وَمَن كانَ له فَضْلٌ مِن زَادٍ، فَلْيَعُدْ به علَى مَن لا زَادَ له». قالَ الصحابي: فَذَكَرَ مِن أَصْنَافِ المَالِ ما ذَكَرَ، حتَّى رَأَيْنَا أنَّهُ لا حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ[1].

(١) رواه مسلم في باب استحباب المؤاساة بفضول المال، رقم: (١٧٢٨).

ولذلك قال عمر: (والله لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء وأعطيتها فقراء المهاجرين). ولذلك كان ما يؤخذ من أموال الأغنياء من ضريبة الزكاة ليس من نوع التبرع الاختياري وإنما هو من الواجبات المالية، وأول حرب داخلية في الإسلام كانت ضد مانعي الزكاة واعتبروا لذلك مرتدين خارجين على النظام العام ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]، وهذا الحق ليس هو الزكاة وحدها؛ ففي المال حق سوى الزكاة كما هو رأي جمهرة من الصحابة، وملكية الأرض بوجه خاص ليست إلا نوعًا من التصرف، ورقبة الأرض للمجتمع أو لبيت المال الذي هو ملك مشاع للأمة، ولذلك كان تحديد ملكية الأرض ولا سيما حين يضر بالمصلحة العامة أمرًا منسجمًا مع تراثنا واتجاهنا ومع مبادئ الإسلام نفسه.

وحقوق المواطنين في بيت المال لا تختلف باختلاف طبقة أو دين، فقد فرض عمر من بيت المال لغير المسلمين من المواطنين دون تمييز وإنما المقياس كما قال عمر: (فإنما هو الرجل وحاجته، والرجل وجهده، والرجل وسابقته)، وأما رأي عليّ فالمساواة المطلقة، وأعلن خالد: (وأيما شيخ عجز عن العمل وأصابته آفة؛ أو كان غنيًّا فافتقر؛ طرحت جزيته إن كان ذميًّا، وزكاته إن كان مسلمًا، وأعيل من بيت مال المسلمين).

الفقر يحارب كما يحارب الترف فقد كاد الفقر أن يكون كفرًا، واستعاذ الرسول منه كما استعاذ من الكفر لأنهما كليهما إنكار لحقائق الفطرة.

وأما الترف فقد اقترن في القرآن دومًا بوصف من أوصاف الظلم والإجرام والكفر والدمار والفساد: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٦]، ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤]، ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١-١٥٢]

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٥].

وقد كانت خطة عمر التي فكر فيها للمستقبل هي التي عبر عنها بقوله: (ليأتين الراعي وهو بجبل صنعاء رزقه من هذا المال وهو في مكانه)، وقوله: (لئن سلمني الله لأدعنّ أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى أحد).

والنظام الذي تثبت فيه الطبقات ولا يتحرك المال فيه ويتداول يخالف روح القرآن إذ يقول: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [الحشر: ٧]، وبلغ استنتاج فقهاء الإسلام أنهم أجازوا لولي الأمر – وهو كما قلنا نائب ووكيل عن الأمة – أن يتدخل في جميع أنواع الفعاليات الاقتصادية لمصلحة الجماعة، كما استنتج ابن تيمية في كتابه «**الحسبة في الإسلام**» منذ سبعة قرون.

تلك هي اتجاهات الإسلام ومناهجه إجمالًا في العدالة الاجتماعية، وهي تتجاوب مع ذلك الاتجاه الذي كان للعرب قبل الإسلام ولو أن مظاهره عندهم كانت ابتدائية بسيطة، أقول: إنها اتجاهات ومفاهيم، لأن الإسلام اكتفى بذلك تاركًا المجال في كثير من التفصيلات لتجارب الزمن واجتهادات البشر دون أن يقيدهم بأنظمة نهائية، كما فعل كذلك في الحكم.

ونستطيع أن نقول إذن؛ إن في الإسلام؛ الذي هو تراثنا؛ مفهومًا للعدالة الاجتماعية والتملك واضح الاتجاه يتصف بالمرونة، ويستمد قوته – وهذا هو الأهم – من العقيدة المحررة للبشر، ومؤيداته لا من القوة الخارجية وحدها، بل من أعماق النفس والضمير الذي أيقظه وجعله يتحسس بالظلم ويعتبره منكرًا يحاسبه الله عليه.

وبذلك اختلف الإسلام في حل مشكلة العدالة الاجتماعية عن المذاهب الروحية التي تركت الموضوع للضمائر وحدها، وجعلت العدالة ضربًا من الإحسان والصدقة الاختيارية، وجعلت جزاء ذلك أخرويًا فحسب. كما اختلف كذلك عن المذاهب المادية التي لم تعالج العدالة إلا من خارج النفس وبالمؤيدات الخارجية، وأغرت الإنسان ليقيم العدل ويثور على الظلم، بما في نفسه من طمع، وما فيها من رغبة في الحصول على العيش والحقد على من في يده، لا بدافع الضمير الذي يتحسس بالعدل ويستنكر الظلم.

وأما الإسلام فقد عالج القضية في داخل النفس والضمير أولًا، فبعث في العقل والقلب شعور المسؤولية أمام الله، والإيمان بمساواة البشر واشتراكهم في نعم الله، وجعل إقامة العدل واجبًا يجاهد في سبيل تحقيقه بدافع من هذه العقيدة التي تملأ نفسه، وبدافع من الشعور بالمسؤولية العظمى لا لأنه سينال هو نصيبًا بنتيجة هذا الجهاد.

كما أنه لم يهمل بعد ذلك المؤيدات الخارجية حين لا يكون عنها محيص، وجعل ذلك حقوقًا لأناس وواجبات على آخرين؛ لا مجرد تبرع وصدقة وإحسان.

ويلاحظ أن الإيمان بالله وإقامة العدل كثيرًا ما يقترنان في الكتاب الكريم، وأنهما محوران تدور عليهما الرسالة، بل هما غايتها كما فهم ذلك العربي الفاتح المحرر: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٢٩].

إن الحضارة التي أقامها العرب الأولون من المسلمين كان نظامها القائم على العدل بين الناس؛ مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بهذه القيم الخالدة حقًّا، والشعور العميق المتجاوب مع النفس، والإيمان بالله خالق الكون، وبالمسؤولية عن عمل الإنسان المستخلف في هذه الأرض في حياة أبدية خالدة.

وأستطيع أن أستخلص من هذا الاستعراض:

١- أن لنا تراثًا قديمًا عريقًا، وأن المهم في هذا التراث ليس هو المظاهر الخارجية لحياتنا التي كانت تتبدل من عصر إلى عصر، وإنما هو ما وراء هذه المظاهر من اتجاهات في أغوار النفس والعقل.

٢- أن في العرب منذ عهد قديم اتجاهًا مثاليًّا إنسانيًّا يتجلى في مكارم الأخلاق في الجاهلية، وكان السبب في تقبل ما تقبلوه من أديان قبل الإسلام، كالحنيفية دين إبراهيم والنصرانية، ثم التقى وتجاوب في طور ثان من حياتهم مع الرسالة الإلهية التي نزلت على رجل من صميمهم ومن لبابهم وخيارهم هو محمد بن عبد الله ﷺ، فكان تجاوب تام بين ما جاء في الإسلام من صور المثل الأعلى الإنساني كما صورته يد القدرة الإلهية وما تتطلع إليه نفوسهم في اتجاهها الأخلاقي الإنساني.

وكان بين العرب كقومية وأمة والإسلام كصورة للمثل الأعلى تلازم طويل تمثل في تاريخ حافل وفي حضارات أينعت وأثمرت ونالت الإنسانية كلها منها أطيب الثمرات، وكان الإسلام في الوقت نفسه رسالة إنسانية للبشر وصيغة صيغت بها مدنية العرب ومفاهيمهم للحياة وما وراء الحياة واتجاهاتهم الفكرية والنفسية، فكان للإنسانية رسالةً وشرعةً ونظامًا، وكان للعرب في الوقت نفسه تراثًا وتاريخًا لا يمكن أن ينفصل عنهم أو ينفصلوا عنه، وكان أضخم قطعة من تاريخهم وأجمل

وأسمى جزء من أجزائه، به أطلوا على الإنسانية فغنوا به كما يغنّي الشاعر في قصيدة واحدة أخص عواطفه الشخصية وأعم المشاعر الإنسانية، من خلاله نظروا إلى الكون وإلى الله بل إلى أنفسهم، وبه انتقلوا إلى مسرح التاريخ وقاموا بوظيفتهم على الصعيد العالمي الإنساني وأصبحوا نواة لشعوب كثيرة أحاطت بهم كالهالة، عن طريقهم عرفت طريق الحياة وحقيقة الوجود، فدانت لهم من أجل هذا وحده بالولاء والحب على أنهم الطليعة المحررة للبشرية.

لئن كان كل مسلم يعتبر الإسلام دينه الذي يدين به في هذه الحياة فإن كل عربي، مهما كان دينه مسيحيًّا كان أم مسلمًا، ينظر إلى الإسلام على أنه تراثه القومي وتاريخه الضخم. وليس الوقت بمتسع لأقرأ لكم ما قاله كبار كتاب العرب من المسيحيين في هذا الباب كأمين نخلة وجميل صليبا والشاعر القروي رشيد الخوري ونبيه فارس وجورج أنطونيوس وفيلكس فارس... وغيرهم.

وأما وضع الإسلام في مقابل النصرانية في صورة خصمين متقابلين فلا أقول: إنه تفكير خاطئ بل آثم مجرم، فكيف وهما من أصل واحد ومنبع واحد أخوان تعاونا على الخير وتعاورا على الهداية وتناوبا على الحراسة؟ ألم يجعلهما القرآن معسكرًا واحدًا يفرح جزء منه بانتصار الجزء الآخر؟ ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٢-٥].

إن الغرب وحده – والذين تأثروا به في آرائهم – هو المسؤول عن هذا الإثم لسوء فهمه للنصرانية والإسلام معًا؛ وقصوره وعجزه حتى الآن عن إدراك معانيهما السامية.

إن المستشرقين من اليهود والمؤرخين المتعصبين من الأوروبيين استغلوا العصور التي شُوِّه فيها الإسلام حين زال العرب عن القيادة، وأعطوا صورة عن عصور التشويه والانحراف التي أصيبت بها حضارتنا.

أما نحن فإننا نحارب الطائفية والعصبية الطائفية، وخاصة بين المسلمين والمسيحيين من أبناء العروبة وبوجه عام أيضًا، لأن دياناتنا نفسها تكرهها فكيف والقرآن الكريم يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المائدة: ٨٢]، ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ [الممتحنة: ٨].

وعلى هذا أستطيع أن أقول: إن الدين كان عاملًا أساسيًّا في تكوين الأمة العربية:

١- في شكل تراث مشترك بين الأديان التي قامت فيها، ويمكن أن يبقى كذلك هذا التراث المشترك بين الإسلام والنصرانية صعيدًا نلتقي عليه في مقابل المادية الأوروبية والوثنية الشرقية.

٢- في الإسلام كتراث للعرب وثقافة وتاريخ.

٣- في الحفاظ على الصِّلات مع شعوب نالت حظًّا من ثقافتنا واشتركت معنا في قسم من تاريخنا، نظرت إلينا كمعلم لها ومرشد وقائد، ومن المصلحة القومية بل الإنسانية الإبقاء على هذه الصلات وتنميتها.

وعلى هذا يمكن أن نرسم الخطوط العريضة الكبرى لتراثنا كما يلي:

١) أن لنا تراثًا قديمًا عريقًا يجب أن تميَّز فيه المظاهر الخارجية المتبدلة من الاتجاهات الثابتة المستمرة والقيم الخالدة.

٢) أن اتجاهنا الحضاري يقوم على القيم الأخلاقية والاعتبارات الإنسانية، ويجب أن تكون دومًا هي الغاية في كياننا المادي والهدف لأنظمتنا الخارجية والمادية.

٣) أن حضارتنا المتجددة تقوم على صعيد مشترك تلتقي فيه الأديان السماوية، وخاصة الإسلام والنصرانية، قوامه الإيمان بالله وبمسؤولية الإنسان في حياة خالدة تتحقق فيها العدالة الإلهية، والفضائل الأخلاقية النفسية. وهذه هي القيم الخالدة التي كانت أقوى المحركات الاجتماعية والنفسية لإقامة حضارة إنسانية سليمة.

٤) أن الإسلام يؤلف الجزء الضخم من تاريخ العرب وتراثهم، فهو عدا كونه رسالةً إنسانيةً عامةً ودينًا يدين به المسلمون في الأرض؛ تراث قومي للعرب على اختلاف أديانهم.

٥) أن حضارتنا ذات اتجاهات واضحة ومفاهيم محددة في ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية وليست ذات نظم مفصلة ثابتة نهائية، فمجال الإبداع والتجديد والملاءمة واسع مفتوح.

إن هذا التراث الذي لخصت خطوطه الكبرى:

١- ينسجم مع الحياة ويتصل معها وليس روحيًّا سلبيًّا، بل هو إيجابي نضالي.

٢- يصلنا بينابيع شخصيتنا.

٣- يوجه قوميتنا وجهة إنسانية أخلاقية.

٤- يقيم أنظمتنا المتجددة على أسس من النفس والضمير، فيخلق الإنسان والضمير قبل أن يخلق الآلة والنظام.

٥- يمكّننا من المساهمة في حل أزمة الحضارة، وتقديم نموذج لحضارة مثلى بين نماذج الحضارات القديمة والحديثة المادية والروحية.

٦- يعطي الأمة العربية العناصر الأساسية لرسالتها، الثابتة في اتجاهاتها الأساسية وقيمها الخالدة، والمتطورة في صورها وأشكالها وظروفها، ويعطي لكياننا القومي، الذي هو وجود وواقع، هدفًا إنسانيًّا ساميًا ومثلًا أعلى يجعله بذلك يقوم بدور هام على الصعيد العالمي.

إن الثورة أخذت «**تعيد القافلة الشاردة إلى طريقها**» كما يقول الرئيس جمال عبد الناصر في فلسفة الثورة، (ص ٤٩) ذلك أنها:

١ً) حاربت الاستعمار بأشكاله المادية والمعنوية.

٢ً) كما حاربت الفساد والإقطاعية، وكلها تتعارض مع تراثنا تعارضًا أساسيًّا.

٣ً)انسجمت مع تراثنا في الوقوف دون الفلسفات المادية.

٤ً) استمدت نظامها الديمقراطي التعاوني الاشتراكي من اتجاهات حضارتنا ومقومات تراثنا.

إن الجمهورية العربية تسير بوعيٍ عميق لتاريخنا وقوميّتنا ورسالتنا نحو تحقيق أهداف حضارتنا الإنسانية. وإليكم ما قاله رئيسنا العظيم جمال عبد الناصر[١]

(١) اتخذ الأستاذ محمد المبارك موقفًا وسطًا أثناء الوحدة بين سوريا ومصر وقبلها وبعدها، بهدف تقريب الاتجاهين الإسلامي والعروبي من بعضهما البعض؛ لتفادي الصراع وتوحيد الجهود، ولهذا استدلَّ في هذا الكتاب بكلام الرئيس جمال عبد الناصر في مواضعَ متعددةٍ وباحترامٍ بالغ، كما استدل بكلام العديد من مفكري الاتجاه القومي؛ لتكون مدخلاً للتقارب، واستمر بالمحافظة على علاقاتٍ جيدةٍ =

في هذا الموضوع مما يتفق وما قلناه إجمالا عن تراثنا الروحي:

(أيمكن أن تتجاهل أن هنالك دائرة عربية تحيط بنا وأن هذه الدائرة منا ونحن منها امتزج تاريخنا بتاريخها... أيمكن أن تتجاهل أن هناك عالمًا إسلاميًّا تجمعنا وإياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب وإنما تشدها حقائق التاريخ... وليس عبثًا أن الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي الذي أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة تراجع إلى مصر وأوى إليها فحمته مصر...كل هذه **حقائق أصيلة ذات جذور عميقة في حياتنا** لا نستطيع مهما حاولنا أن ننساها أو نفر منها).

وقال الرئيس أيضًا: (وما من شك أن **الدائرة العربية** هي أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطًا بنا فلقد امتزجت معنا بالتاريخ... وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضًا بالدين فنقلت مراكز الإشعاع الديني في حدود عواصمها من مكة إلى الكوفة ثم إلى القاهرة).

وحين ذكر الرئيس مصادر قوتنا قال: (وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفرًّا من أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها يجب أن تكون أول ما يدخل في الحساب. أول هذه المصادر: أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة المترابطة

= مع الاتجاه العلماني بأشكاله رغم أنه من قيادات الاتجاه الإسلامي. لكن مع الأسف لم تكن نيةُ العمل الجماعي بين الاتجاهات المتصارعة موجودةً، خاصة في طرف الأنظمة الحاكمة، فخفَتَ صوتُ التيار الذي يسعى للصلح، وعلا صوتُ الحرب الإيديولوجية، وامتلأت السجون بالمعارضين خاصةً من الإسلاميين، حيث تم إعدام مجموعاتٍ كبيرةً منهم في حُقَبٍ متوالية وفي بلدان عدَّة. (المحقق).

بكل رباط مادي ومعنوي، **وأن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت في جوّها الأديان السماوية الثلاثة ولا يمكن قط إغفالها في محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام**. وأما المصدر الثاني: فهو أرضنا نفسها ومكانها على خريطة العالم... والمصدر الثالث: هو البترول...).

وتحدث الرئيس في فلسفة الثورة بعد ذلك عن مدى الفعالية الإيجابية التي يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامي بين جميع المسلمين، وعن الإمكانيات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعًا لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع؛ ولكنه يكفل لهم ولإخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة.

إن الجمهورية العربية المتحدة نقطة انطلاق لتراثنا العظيم وإمكانيّاتنا العظيمة، وفي وحدة العرب وتحررهم، وقوتهم خدمة كبرى للقضية الإنسانية، وإن إجرام الاستعمار في تعويقها عن الوصول إلى أهدافها إجرام بحق الإنسانية جمعاء.

إنني أعتبر أن تحرير البلاد العربية التي أصبحت الجمهورية العربية المتحدة في مقدمتها واجبًا ليس على العرب وحدهم بل على الإنسانية، وأن وحدة العرب وتحريرهم وإقامة حضارة جديدة هو أعظم قضية تخدم بها الإنسانية جمعاء، وأن الاستعمار في جميع صوره وأشكاله مجرم ليس مع الأمة العربية وحدها بل مع الإنسانية، لأنه يقف أمام الأمة التي تستعد لإنقاذ الإنسانية من التردي في مهاوي الفساد والطغيان والاستبداد. فعليكم أن تثقوا بمستقبلكم وتثقوا بعمق تراثكم وأفضلية هذا التراث؛ بقيمه الخالدة وعناصره الأساسية، فجاهدوا وناضلوا بقوميّتكم فإنكم تجاهدون في سبيل إنقاذ الإنسانية.

القوميّة والإنسانيّة، العروبة والإسلام

* العرب والحضارة الإنسانية:

إن الأفراد في المجتمع الواحد لا يمكن أن يتكون من مجموعهم مجتمع سعيد منتج صالح للبقاء إلا إذا كانت لهم غاية مشتركة يسيرون نحوها، وهدف يجتمعون على تحقيقه، أما إذا كانت غاية كل واحد منهم أن يكون هو وحده كل شيء في السعادة والمجد والمنفعة، وفقدت الغاية أو الهدف المشترك، وكان التنازع والصراع أساس التعامل بينهم فإن مآل هذا المجتمع التناقص والاضمحلال.

وكيف يمكن أن يعيش مجتمع ليس بين أفراده حد أدنى من الاعتقاد بغاية مشتركة، والعمل لهدف جامع؟ وكيف يمكن أن يسير ويرقى وينتج حضارة إذا لم ينظر إلى هؤلاء الأفراد نظرة أساسها المساواة الإنسانية من حيث الأصل، وإذا لم يفسح المجال أمامهم على أساس التكافؤ في الفرص والحد من طغيان القوي على الضعيف منهم ليقدم كل منهم ما يستطيع تقديمه للمجتمع من خير بحسب ما تؤهله له مواهبه وقدرته؟

إن ما ذكرناه في الأفراد ليعيشوا في مجتمع واحد، ينطبق على الشعوب والقوميات ليمكن أن تعيش في مجتمع بشري عام؛ وليمكن أن ترتقي الحضارة وتقدم الخير للناس أجمعين.

إن الشعوب أو القوميات هي من البشرية أجزاؤها المكونة لها، ولا بد لها منها كما لابد للمجتمع من أفراد، وهذا هو واقع البشرية الذي لا ينكر؛ فقد خلق الله

الناس (شُعُوبًا وَقَبَائِلَ) لا أفرادًا منعزلين. ولكن البشرية لا تعيش سعيدة ولا ترتقي حضارتها إذا كانت الأنانيات القومية وظلم القوي منها للضعيف واستعلاء بعضها على بعض واستعباده هي القاعدة السائدة والأساس الذي تقوم عليه؛ إذ الحياة تصبح صراعًا عنيفًا بين الشعوب والقوميات، وبدلًا من أن تقدم كل منها ما تمكنها مواهبها وقدرتها لتقديمه من خير للبشرية تنشغل في هذا الصراع الذي يستنفد قواها ويستغرق جهدها.

لا بد للقوميات لتكون مجتمعًا بشريًّا قادرًا على إنتاج الحضارة وإفاضة الخير والارتقاء بالعلم من الاعتقاد بغاية مشتركة يسير الجميع نحوها، وهدف جامع يعمل الجميع على تحقيقه، ولا مانع حينئذ من التنافس، ولكن في سبيل المسارعة إلى تحقيق الهدف المشترك وبلوغ الغاية المشتركة. ومن هنا كانت أهمية العقائد ذات الصفة الإنسانيّة العامة في ارتقاء الحضارة وإحلال السلام والأمن بين شعوب البشر.

إن هذه العقائد الإنسانيّة المشتركة بإيجادها مواطن تلتقي فيها الشعوب وإحلالها للسلم بدلًا من الحرب، تفسح المجال للقوميات لتُظهِر في مجالات الفكر والعمل وميادين الحضارة نتاج عبقرياتها، وتنمي إمكانياتها، ويتعاون بعضها مع بعض، فتبرز كل واحدة منها في الميدان الذي هو ميدانها وتكمل بعضها بعضًا بما لكل من خصائص ومزايا ومواهب.

إن التعايش السلمي هو أدنى مراتب هذا التعاون، إذ إنه إقرار كل شعب بحق الشعب الآخر في أن يعيش بسلام وأمن، ولكن التعاون الإيجابيّ بين الشعوب والأقوام هو مرتبة أرقى في مدارج التعاون البشريّ والارتقاء الحضاريّ.

إن تقدم الحضارة الإنسانيّة منوط إذن بوجود عقائد إنسانية مشتركة بين

القوميات؛ ويستلزم ذلك بالطبع اعتبار المساواة بين الشعوب – من حيث الأصل الإنساني والمبدأ وفسح المجال أمامها في فرص متكافئة دون أن يطغى قوي منها على ضعيف – أساسًا ضروريًّا للوصول إلى هذه الغاية الإنسانيّة المنشودة.

إن حرية الشعوب واعتبارها متساوية من الوجهة الإنسانيّة، وتقديم الفرص المتكافئة لها جميعًا، وفسح المجال لإنتاجها وإظهار عبقرياتها ومواهبها، ووجود مبادئ إنسانيّة وعقائد مشتركة بينها، شروط ضرورية لاستقرار السلام وإنتاج الحضارة. وبالمقابل إن استعباد الشعوب بعضها لبعض واستعمارها وتمييز بعضها على بعض في الحقوق الأساسيّة والأنانيّة القوميّة والتمييز العنصريّ والعقائد المبنية على العصبيات الجنسيّة، كلها ترجع بالإنسانيّة إلى الوراء وتحل الصراع محل التعاون والحرب محل السلم وتؤخر الحضارة الإنسانيّة والارتقاء البشري.

إن لكل قومية صيغة تصوغ في قوالبها الحضارة، واتجاهًا تتجه في مسيرها نحوه، ونظرة تفهم الحياة من خلالها، وإنتاجًا ماديًّا أو معنويًّا تقدمه للناس، وإن أفضل القوميات هي تلك التي تقدم للمجتمع البشري أفضل حضارة وأحسن إنتاج والتي تخدم بحضارتها وإنتاجها الإنسانيّة. فمن القوميات ما لا تستطيع أن تخدم إلا نفسها، فنفعها مقصور على ذاتها، ومنها ما يتعدى نفعها إلى غيرها، ومنها ما لا ينتج إلا الأشياء المادية الزائلة المستهلكة وإن كانت نافعة، ومنها ما ينتج الأفكار ويبدع الأخلاق ويبعث الحضارات ويعين الشعوب. وههنا مجال التفاضل والتنافس بين القوميات. وكلما كانت العناصر الإنسانيّة الخيرة أكثر في حضارة قومية من القوميات كانت تلك القومية وحضارتها من نوع أرقى وأسمى. والأمجاد والمفاخر القومية إنما تكون صحيحة سليمة ذات قيمة أخلاقية بقدر ما تكون إنسانية

في نتائجها وآثارها. وإن التطور البشري سائر نحو زيادة الرصيد الإنساني المشترك والنقص من أثر الخاصة غير المشتركة.

فما هو نصيب العرب في الماضي والآتي من الحضارة الإنسانية؟ وما هو مدى مساهمتهم فيها؟ وماذا قدموا للبشرية من نفع وخير ورقي؟ وهل استنفدوا ما عندهم من إمكانيات؟ وما هي العناصر الإنسانية العامة في الحضارة التي حملوها إلى الناس؟ وما هي المكانة التي تؤهلهم لها إمكانياتهم من جهة وحضارتهم ورسالتهم من جهة أخرى في الماضي والمستقبل؟

إن العرب منذ عصور قديمة نضجت عناصر تكوينهم، وتظاهرت عوامل الأصل والوراثة وعوامل البيئة الطبيعية التي يعيشون فيها على هذا التكوين، حتى كانت تلك الأمة التي وصفها النبي العظيم صلوات الله عليه بقوله: «أنا خيارٌ مِن خيارٍ مِن خِيارٍ»، والتي بلغت عقولها مرتبة عالية من الإدراك الفطري واتجهت نفوسها نحو المثل الأعلى الذي تجلى في المروءة والشرف بما فيهما من عناصر الكرم والشجاعة والوفاء والعفة، وإن كانت أسرفت وأفرطت وضلت عن الهدف وانحرفت، وكانت الجاهلية مزيجًا من الحكمة الفطرية والمثالية ومن الإسراف والانحراف، إلى أن قضت حكمة الله في أن تخرج رسالة الإسلام من صميم الجزيرة، وتهبط الحكمة الإلهية على النبي العربي، وترتسم صورة المثل الأعلى الإنساني الكامل بيد القدرة الإلهية في كتاب عربي مبين.

وإننا هنا أمام حقيقتين تاريخيتين لا يمكن إنكارهما بصرف النظر عن اعتقاد المسلم الديني في الأصل الإلهي للإسلام:

أولهما: أن الإسلام ظهر أول ما ظهر في صميم الجزيرة العربية، وكانت

النفس العظيمة التي تلقفته وأعلنته للناس ودعت إليه من صميم العرب ومن خيارهم، وأنه بصرف النظر عن أصله الغيبي الإلهي تجاوب مع نفوسهم على بعد ما بين مستواهم والمستوى الذي رسمه للحياة؛ ولئن صادم بعض عاداتهم فإنه لم يصادم الأصيل من اتجاهاتهم والكريم من خصالهم والعميق من مشاعرهم. وإن العرب بعد هذا اتخذوا من هذا الإسلام أساسًا بنوا عليه حياتهم وجعلوه دستورًا لهم بل أساسًا ودستورًا لبناء إنسانيّة جديدة أشرفوا هم على بنائها، استطاعوا أن يحققوا فيها، لا تعايش الشعوب والأمم فحسب، بل تعارفها وتعاونها، فلم تضع ذاتيتهم، ولم تذب قوميّتهم، بل كانت إنسانية الصيغة في حضارتها واتجاهاتها، وكانوا هم قوّامًا على هذه الإنسانية التي أصبحوا يرون فيها امتدادًا لشخصيتهم المعنوية وثقافتهم ورسالتهم، وهكذا كان نفوذهم وعملهم وفتوحهم ليس فرض قومية على أخرى ولكن نشر صيغة إنسانية للحضارة وتأسيسها والدعوة إليها عن طريق شعوب الأمم الأخرى وجماهيرها. وهكذا كانت الحقيقة التاريخية التي لا معديّ عنها أن الإسلام غدا بالنسبة إلى العرب أولًا وإلى من تبعهم ودان بالإسلام ثانيًا نظرتهم إلى الحياة، وتصورهم للوجود، والفكرة الشاملة التي اِتصلت بعقولهم ونفوسهم اِتصالًا عميقًا، وكانت الناظم لهم أفرادًا وأجيالًا حتى عرفت في العالم بهم وعرفوا بها، ولا سيما بعد أن انبثق عن الإسلام حضارة شملت جميع آفاق الحياة الفكرية والنفسية والاجتماعية والسياسية وغيرها، وكانت اللغة العربية لغة هذه الحضارة خلال التاريخ لأنها اللغة التي بكلماتها وتعابيرها ظهرت إلى الوجود رسالة الإسلام.

والحقيقة التاريخية الثانية هي: أن الإسلام في صورته الأصلية، قبل أن تشوهها عصور الانحطاط والمفاهيم الأعجمية التي انحرفت في فهمه؛ تضمّنَ القيم الخالدة من تراث الديانات والنبوات والأهداف الإنسانية والغايات المشتركة بين

الأمم والشعوب، وجاء بالمعتقدات التي تقيم إنسانية تقر حرية الأمم والأقوام والمساواة بينها وتفسح المجال لعبقرياتها وإنتاجها على أساس التعارف والتعاون، ورسمَ للإنسانية الصورة الكاملة للمثل الأعلى الإنساني الذي يتجاوب مع الفطرة ويطابق الحقيقة، فوصل الإنسان بأعماق الوجود في جانبه الروحي، وبعث فيه الوعي الكوني العام، ووصله عن طريق الكون بما وراء الكون من قوة خلاقة، وأشعره بمسؤوليته العظمى أمام قوة الله هذه، وعلى هذا الأساس الروحي الأصيل عمل على تكوين الشخصية الخلقية للإنسان، وفسح المجال لتقدم العقل وارتقاء الحياة المادية دون اعتبارها الغاية القصوى، وبذلك حرر الإنسان والبشرية من الأثرة والأنانية ومن العصبيات القبلية والطبقية والجنسية، ومن الخضوع للمال وللإنسان صاحب المال أو السلطان، وأقام بعد ذلك نظامًا يكافح فيه الظلم والفقر والجهل ويقام العدل والعلم والأمن والعيش.

إن الأمة العربية التي أشرفت في الماضي على تكوين حضارة إنسانية وأدت يومئذ رسالتها قادرة اليوم بل مسؤولة عن تكوين حضارة إنسانية جديدة في ظروف جديدة وشروط وأشكال جديدة ولكنها تحتفظ بالقيم الخالدة والأسس والمبادئ والاتجاهات.

إن يقظة العرب وقيام الأمة العربية وتحررها وانبعاثها من جديد مصدر خير لا مصدر قلق أو خوف لجميع الشعوب والقوميات الأخرى وللإنسانية ولتقدم الحضارة وحسن توجيهها نحو الخير والحق والعدل ونحو الله مصدر الحق والخير.

* حكمة اختيار العرب لتأسيس المجتمع الإنساني:

إن القرآن الكريم وإن جاءت رسالته عامة ومبادئه إنسانية اقتضت حكمة الله

وسنته في هذا الكون أن يكون أول المخاطبين به وأول المبلغين له أمة بعينها وهم العرب، فحمّلهم الله بذلك مسؤولية أكبر، وأنالهم بذلك شرفًا عظيمًا، وهذا ما أشار الله إليه في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

إن القرآن الكريم الذي تضمن مبادئ مشتركة لبني البشر صوّر الواقع كما هو، وهو أن المجتمع البشري يتألف من جماعات لا من أفراد، فالشعوب والأقوام هي الوحدات البشرية القائمة في حياة البشر، وإلى هذا أشار الله تعالى في قوله مخاطبًا للناس جميعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالناس يتألفون من أقوام وشعوب، وكل شعب يتألف من أسر وقبائل، والواحد من أفراد البشر يرتبط بالأسرة والشعب الذي منه نشأ. هذا هو واقع البشر، ولكن القرآن الكريم جعل لهذه المجموعة من الشعوب المختلفة والأقوام المتباينة هدفًا مشتركًا، وأراد أن يسير هذا الواقع الموجود نحو غاية مشتركة، وأن يكون اختلاف الشعوب سببًا لتعاونها وتكاملها لا لتنافسها وتنابذها، ولذلك أعقب ذكر الشعوب والقبائل بقوله ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٢]. وبذلك جعل المجتمع الإنساني غاية المجتمعات القبلية والقومية وجعلها بذلك متحركة متطورة سائرة نحو غاية تتجه نحوها، وتلتقي عندها، ووجه إلى كل منها نداء ودعوة لأن تتصف بصفات، وتؤمن بعقائد من شأنها أن تقرب بينها، وجعل بذلك طريقها واحدًا ومسيرها في اتجاه واحد. فقد دعا الجميع إلى الإيمان بإله ليس خاصًا بقبيلة أو شعب، ولكنه الله خالق السموات والأرض، وما الشعوب والقبائل إلا جزء ضئيل من خلقه، وإلى عبادة الله وحده دون سائر الأهداف التي يمكن أن تكون معبودًا خاصًا لفئة من فئات البشر. وجميع البشر يتصفون بصفة مشتركة هي كونهم عباد الله وخلقًا واحدًا من جملة خلقه. كما دعاهم إلى الإيمان

بأنهم مسؤولون أمام الإله الخالق مسؤولية هي أعظم المسؤوليات جميعًا وأدقها، وأقام على هذه العقيدة نظامًا احتوى المبادئ العامة التي لا تختلف من شعب إلى شعب ومن أمة إلى أمة، كالشورى في الحكم والعدالة في الحقوق ومسؤولية الحاكم وحق الفقراء في أموال الأغنياء إلى غير ذلك مما اختطه القرآن من مبادئ إنسانية عامة تصلح لجميع الأقوام والشعوب.

وبذلك أقام القرآن رابطة جديدة هي الرابطة الإنسانية وجعل الروابط الأخرى خادمة لها ومقوية؛ كما أقام مجتمعًا جديدًا هو المجتمع الإنساني وجعل المجتمعات القبلية والقومية متوجهة نحوه، ومستهدفة غايته، ومتضافرة ومتعاونة على تكوينه. وقد كان تبليغ هذه الرسالة التي هي أكمل ما يمكن أن يكون من الرسالات التي نزل بها وحي السماء إلى الأرض إنما كان عن طريق أمة اختارها الله للتبليغ جريًا على سننه المطردة في الكون، فقد قضت الحكمة الإلهية في أن يكون المبلِّغ لخاتمة الرسالات من العرب وأن يكون ظهوره من بينهم وفي بيئتهم ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الجمعة: ٢]، والأميون لقب أطلق على العرب لأنهم لم يكونوا حملة كتاب ولم يعرفوا بكتاب سماوي.

وحكمة هذا الاختيار على ما نرى أن العرب – حين ظهور الإسلام – كانوا بين نوعين من الأمم: نوع كان لا يزال اِبتدائيًّا في تفكيره ومستواه كأنه الطفل في بدء نشأته، ونوع تجاوز الشباب، وتركّزت فيه صفات سيئة، وتردى في مساوئ رسخت في نفسه، ذلك أن الفرس كانت الملذات غالبة عليهم، والجدل الكلامي والأساطير على اليونان، والروحية الانعزالية على الهنود، والروح الاستعمارية على الرومان، أما العرب فلم يكونوا اِبتدائيين في تفكيرهم وعاداتهم وأخلاقهم كما أنهم لم يتردوا في مساوئ الأمم الأخرى.

فقد كان العرب يمتازون بالروح العملية الواقعية البعيدة عن الانعزالية وعن الخرافية الخيالية؛ وكانوا قد بلغوا مرحلة عالية من التفكير الفطري السليم وخاصة التفكير المتصل بالحياة العملية، لا التفكير الجدلي أو الخيالي، كما أنهم كانوا بعيدين عن التهالك على الملذات المادية يحتقرون من يكون همه في الحياة الطعام والشراب ورغد العيش كما قال لقيط بن يعمر الإيادي:

لاَ مُتْرَفًا إِنْ رَخَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ * وَلاَ إِذَا حَلَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا
فليسَ يشغَله مالٌ يثمّرُهُ * عَنكُم ولا ولدٌ يَبغي لهُ الرّفعا

وقال الشماخ:

فتىً ليسَ بالرّاضي بأَدْنى مَعيشةٍ * ولا في بيوتِ الحيِّ بالمُتَوَلِّجِ

فكانوا على فقر بيئتهم تدفعهم في حياتهم وتحركهم دوافع مثالية ولو كانوا على خطأ في تقدير المثل الأعلى أو الخير، وهذا ما صححه الإسلام، ولكنهم على كل حال على استعداد لأن يضحوا المادة في سبيل المعنى أو في سبيل الخير.

إن هذا الاستعداد المثالي الذي كان عند العرب والذي كان ينقصه المثل الأعلى الإنساني الصحيح هو السبب في اختيار العرب لتبلغ الرسالة الإلهية الإنسانية وتبليغها إلى الناس.

إن العرب هم المخاطبون الأولون والنواة الأولى للإسلام، فقد أوحي إلى الرسول الكريم ﷺ بادئ ذي بدء ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣]، ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ [الأنعام: ٩٢]، تمهيدًا لتعميم الرسالة ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ

جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

والعرب هم الذين أعطوا النموذج الأول لتطبيق الإسلام وتنفيذه في شكله الفردي والاجتماعي؛ وقد كُلِّفوا بتبليغ الإسلام إلى الناس كافة فجاء الخطاب الكريم ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] أي لعلكم تفهمونه حق الفهم فتبلغوه إلى غيركم.

والخطاب الإلهي إنما جاء بلغتهم بلسان عربي مبين، ووفقًا لأساليبهم، وراعى ما ألفوا فهمه، ليستطيعوا أن يفهموه فينقلوه إلى سائر الأمم؛ ولذلك لم يعتبر القرآن المنقول إلى لغة غير العربية قرآنًا بل يعتبر تفسيرًا.

لقد حمّل الله العرب مسؤولية الرسالة الإنسانية التي ضمنها القرآن الكريم فأحلهم محل المعلم المرشد والدليل القائد.

والعالم المتخبط اليوم في جاهلية جديدة ما بين مادية طاغية واستعمار أثيم باغ في الغرب، وانحطاط وابتدائية في أمم الشرق؛ بحاجة إلى رسالة يتحرر بها من جاهليته وماديته.

* محمد رسول الله وقومه: (معنى الجاهلية- منزلة العرب- إنسانية الإسلام)

توالت النبوات والرسالات عبر العصور وفي الشعوب والأمم، واقتضت سنة الله في طبيعة الحياة الاجتماعية أن تختلف هذه النبوات والرسالات سعة وضيقًا، وتعسيرًا وتيسيرًا، وقسوة ومرونة، ومادية وروحية بحسب أحوال هذه الشعوب، ومراحل نموها ومستوى إدراكها. والإسلام من بين هذه الرسالات أشملها لنواحي الحياة، وأرعاها لمصالح البشر على اختلاف أجناسهم وأممهم وأحوالهم، وأدقها

توازنًا بين المادية والروحية والفردية والاجتماعية، وأجمعها للعناصر الخالدة في الحياة وللدوافع النفسية والضوابط الاجتماعية، وأفسحها مجًالا لإعمال الرأي وارتقاء العقل.

فلا عجب بعد هذا أن تكون شخصية الرسول المبلغ لهذه الرسالة متناسبة في سعة المدارك ونفاذ الفكر وعمق الوعي ورقة الشعور وتعدد الآفاق والميادين وسمو الروح مع آفاق هذه الرسالة وخصائصها، وأن يكون هذا الرسول بين الأنبياء والرسل في المنزلة التي تقع فيها رسالته بين الرسالات والنبوات.

وإذا كانت رسالة الإسلام إنسانية عامة فإن عبء تبليغها ونشرها بين الناس لا بد أن تقوم به جماعة منهم تكون قادرة على تفهم هذه الرسالة وإدراك أهدافها ومراميها وتمثل روحها وتقبل تعاليمها وإجادة تنفيذها.

وكذلك قضت حكمة الله أن يكون العرب، قوم الرسول الكريم، هم أول المبلغين وأن يكونوا النموذج الأول الذي قام بالتجربة الروحية والاجتماعية، ليكون هذا النموذج قدوة لسائر الأمم ولجميع الناس؛ وأن يكونوا بعد ذلك هم الذين يبلغون غيرهم رسالة الإسلام ويعلمونها للناس ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدًا. إن هذه الأمة التي اصطفى الله منها رسوله إلى الناس كافة، وحملها أمانة التبليغ لغيرها، لا جرم أن فيها من المزايا ما يؤهلها لهذه المنزلة التي أحلّها الله إياها.

إن عرب الجزيرة قبل الإسلام كانوا على منزلة عالية من ذكاء الفطرة وقوة الفراسة وسداد التفكير وإن لم يكونوا أهل علم ودرس. كما كانوا أصحاب إباء وشمم ومروءة ومكارم، يبذلون الأموال والأرواح في سبيل ما يعتقدون أنه شرف ومروءة،

وقد يغالون في اندفاعهم في سبيل الغايات المثالية حتى يقعوا في إسراف يؤدي بهم إلى المساوئ؛ فيضيعون المال الكثير في سبيل ضيف واحد، ويقتلون خوفًا من الوقوع في العار أو طلبًا للثأر. لقد وضعوا مواهبهم في غير موضعها وضلوا الهدف الذي يجب أن يسيروا نحوه وأسرفوا حتى وقعوا في النقيصة، ولذلك وصفهم القرآن الكريم بهذه الأوصاف الثلاثة فقال عنهم، إنهم مسرفون: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥]، وإنهم غافلون في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦]، وإنهم ضالون: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، لكن هذه الأوصاف لا تدل أبدًا على سوء الفطرة فقد قال الله تعالى مخاطبًا رسوله الكريم صلوات الله عليه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، وقال أيضًا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وخلاصة القول في العرب قبل الإسلام أنهم قوة لم توضع في موضعها، قوة في العقل وقوة في الخلق ولكنها ضلت سبيلها، وانحرفت عن الوجهة المثلى، وهذا ما ينطبق عليه الوصف بالإسراف والضلال، ولو لم يكن في العرب هذا الاستعداد وتلك الفطرة لما اختار الله منهم رسوله ولما اختار منهم صحابة نبيه وتراجمة دينه وجعل منهم هداة للدنيا. لقد كانت تلك القوة محتاجة إلى حسن استخدام واستثمار، وكانت تلك المواهب في حاجة إلى تزكية وتوجيه، فجاءت رسالة الإسلام من الله لتصنع من هذه القوة الضائعة والمواهب المهدرة المعجزة الكبرى. ويؤيد هذا المعنى عدد من الآيات التي تشير إلى اختيار الرسول العظيم من العرب كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقول

الرسول صلوات الله عليه وعلى آله: «أنا خيارٌ مِن خيارِ مِن خِيارٍ»، بالإضافة إلى قوله: «النَّاس مَعادِن، خِيارُهم في الجاهِلِيَّةِ خِيارُهُمْ في الإسْلامِ، إذا فقهُوا»، ويشهد له كذلك إشادته بحلف الفضول وبخصال بعض الجاهليين كحاتم الطائي.

إن تلك القوة البشرية الهائلة التي كانت تتمثل في العرب، كانت قبل الإسلام أشبه بإنسان خارق الذكاء نادر المواهب، لم يستفد علمًا ينفع الناس به ولم تستثمر مواهبه فيما خلقت له من نفع المجتمع. وإذا كانت هذه مواهب العرب ومزاياهم فقد حرص النبي الكريم ﷺ على هداية قومه أشد الحرص كما تشهد لذلك الآيات الكثيرة كقوله تعالى:

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨] ولم يستنزل عليهم عذاب الله، كما فعل من قبله من الأنبياء، فهو الذي قال يوم فتح مكة: «اليوم يوم المرحمة اليوم يعظم الله الكعبة»(١) جوابًا لمن قال: اليوم يوم الملحمة، وطالما ردد: «اللهم اهدِ قوْمِي فإنَّهم لا يعلمونَ»(٢). ذلك أنه كان ينتظر منهم الخير العميم للبشرية وينتظر تحقيق وعد الله الذي وعده إياه ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

نعم إن العهد الذي سبق الإسلام جدير بأن يسمى بالجاهلية؛ وهو الاسم الذي أطلقه القرآن والعرب أنفسهم بعد الإسلام على ذلك العهد. والجهل هنا بمعنى

(١) السيرة الحلبية، (٣/ ١١٨) ورواه أصحاب السير بألفاظ مختلفة.

(٢) رواه البيهقي في الدلائل بلفظ (اللهم اغفر لقومي...) (٣/ ٢١٥) ورواه أصحاب التفسير والسير.

وضع الأشياء في غير مواضعها، وعدم مراعاة ما تقتضيه الحكمة، وليس معناه نفي العلم، وقد قال الرسول الكريم ﷺ لصحابي قال لآخر يا ابن السوداء: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»(١). فالجاهلية عهد وضعت فيه قيم الأشياء في غير المواضع التي يجب أن توضع فيها، وعلى هذا فليس معنى الجاهلية الانحطاط والوحشية كما ظن بعضهم، كما أن إطلاقها على ذلك العهد صحيح لا غبار عليه لا ينسب إلى الخطأ في فهم ذلك العصر. ومن أصدق حكمًا من الله الذي سماه جاهلية في محكم كتابه ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، ومن رسوله الذي سماه كذلك بالاسم نفسه، ومن الصحابة، أبطال العرب الذين طالما تردد على ألسنتهم قولهم كنا نفعل كذا وكذا في الجاهلية.

لقد صنع العرب قبل الإسلام حضارات في بقاع مختلفة من أرضهم، ولكنها كلها كانت إقليمية محلية غير شاملة للعرب ولا عامة في جميع بلادهم، وكانت مقتصرة على ناحية من نواحي الحياة كالصناعة والزراعة والتجارة، فلم تكن ذات فكرة أو رسالة، وكانت متأثرة بغيرهم من الأمم الأعجمية كالروم وفارس والحبشة ولم تكن عربية خالصة. وأول حضارة للعرب جمعت شملهم وعمت أرضهم وكانت عربية بالصبغة لا عجمة فيها، وذات رسالة عامة قابلة للنشر والتعميم إنما كانت بعد ظهور الإسلام وحملهم لرسالته. ولذلك فلا مجال مطلقًا للمقارنة أو المقايسة بين حضارات العرب القديمة وحضارة العرب بعد الإسلام. فرسالة الإسلام التي جاءهم بها محمد ﷺ نقلتهم إلى الصعيد العالمي، وجعلت لهم الأثر العظيم في تاريخ البشرية وتطورها. لقد كان من وراء حب الرسول ﷺ لقومه حبه للإنسانية جميعًا، فقد أراد الله له أن يجعل من قومه رسلًا للخير ودعاة إلى الحق

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وأنصارًا للعدل ومحررين للإنسانية من العبودية، ولم يضحّ بالحق والعدل والخير في سبيل قومه، بل رفع قومه إلى مقام الدفاع عن هذه المثل العليا الإنسانية، حتى أصبح مجد قومه ورفعتهم مجدًا للإنسانية كلها والدفاع عنهم دفاعًا عنها. لقد جعل من قومه مجاهدين في سبيل تحرير الإنسانية ورقيها ولم يسخر البشرَ لمجد قومه. وفرق كبير بين أمة تنال المجد والذكر بما تقدمه للإنسانية من خير، وأمة تريد أن تفرض نفسها على البشر وتجعل من نفسها أمة فوق الأمم وتعمل لمجدها وحدها وتربي أبناءها على عصبية الدم واستعلاء الجنس وأنانية الجماعة.

إن النبي العربي ﷺ لم يعمل على إغناء قومه ونفعهم وإعزازهم بإفقار الشعوب الأخرى والإضرار بهم وإذلالهم وإن حصلوا على الغنى والعز والمنفعة.

إن ما في رسالة الإسلام من روح إنسانية ومبادئ تقدمية للبشر وتعاليم أخلاقية وتشريعات عادلة هو الذي رفع من شأن العرب في العالم وأحدث لهم ذكرًا ومجدًا لا يمحى على الدهر. ولذلك كانت الصلة بين العرب ورسالة الإسلام صلة ثابتة خالدة لا تنفصم عراها، ولا يرضى بالفصل بينهما إلا كل جاهل لتاريخ العرب وتاريخ العالم، أو شعوبي حاقد ينقم على العرب فضلهم وينتقص من المنزلة التي أحلهم الله فيها.

إن الله اصطفى رسوله العظيم إلى الإنسانية من هذه الأمة الكريمة، وجعل هذه الأمة العربية مسؤولة عن هذه الرسالة الإنسانية لما آتاها من مزايا تؤهلها لذلك فقال في قرآنه العظيم: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ولذلك خاطبها أولا فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، ولكن هذه الرسالة التي حملوا عبئها إنسانية عامة خالدة مع الدهر، لما تحتويه من عناصر

الخلود في عقيدتها الرائعة ومبادئها الخلقية والتشريعية: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

*** القرآن والأمة العربية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]**

إن هذا القرآن العظيم الذي يتلى آناء الليل وأطراف النهار في جميع أنحاء العالم بلفظه العربي، يحمّل الأمة العربية قبل غيرها – وأكثر من غيرها من الأمم – مسؤولية عظيمة ثقيلة أمام الله وأمام العالم، وتحتاج هذه المسؤولية إلى تنبه ووعي وإلى استعداد وعمل وإلى نضال وجهاد. ذلك أن هذا الكتاب الكريم جاء بمبادئ إنسانية فخاطب الناس جميعًا دون تخصيص، وذكر فيه الإنسان أي إنسان في مراحل خلقته وأطوار تكوينه وفي طبائعه ونفسيته وأتى بمفاهيم إنسانية للحق والعدل والخير فقال جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

إن هذا الكتاب الإنسانيّ في تعاليمه، العام في خطابه، العالميّ في دعوته، قضت حكمة الله في أن يبدأ تبليغه لأمة بعينها وأن ينزل أولًا في جوها ووسطها وبين أفرادها وأن يصاغ بلغتها وتعابيرها وأن تكون هي التي تعيه أولًا ثم تبلغه للناس جميعًا وتنقله إلى العالم.

لقد كان شرفًا للعرب في أن يكون منهم الرسول الذي تختم به الأنبياء وأن يحملوا الرسالة التي هي خاتمة الرسالات، وأن تصاغ الإنسانية بلغتهم

وأن يجعل الله منهم حملة الفكرة أو العقيدة العامة، والمبشرين بالمفاهيم الإنسانية في الأخلاق والتشريع والحضارة، وأن يكونوا في ذلك شهداء على الناس ويكون الرسول شهيدًا عليهم.

ولقد أصبح بين القرآن – ذلك الكتاب الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – وبين الأمة العربية صلة لا تفصم ورابطة لا تفك، وهي الصلة بين **رسالة عالمية، وأمة مبلغة، ولغة معبرة.**

١- لقد قضت إرادة الله أن يكون الرسول العالميّ الإنسانيّ المبعوث رحمة للعالمين من هذه الأمة العربية ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، قال البيضاوي في تفسير هذه الآية: من أنفسهم، أي من نسبهم أو من جنسهم عربيًّا مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة. وقال ابن كثير: أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به.

٢- ولقد أمر الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه بأن يبدأ بعشيرته ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وأن يبشر بدعوته في مكة وما حولها أولًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧].

٣- ثم عمَّت الدعوة العرب كلهم، وبُشِّروا بما سيكون لهم بهذه الدعوة من مجد ورفعة وشرف، بقيامهم بعبء تبليغ هذه الرسالة، ونقل هذه الدعوة الخيرة الإنسانية التي جاء بها القرآن العظيم إلى الناس كافة، وقد قال الله تعالى في سورة

الزخرف مخاطبًا رسوله الكريم: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (قيل معناه لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد واختاره ابن جرير ولم يحك سواه، وقيل معناه: لتذكير لك ولقومك)، قال ابن كثير: وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وسواء أكان الذكر في هذه الآية بمعنى الشرف والرفعة – وهو ما حصل فعلًا للرسول ﷺ وللعرب بسبب رسالة القرآن والاضطلاع بحملها وتبليغها – أو بمعنى التذكير فإن في هذه الآية تخصيصًا لقوم الرسول بالذكر وإلقاء مسؤولية ضخمة على عواتقهم ولذلك ختم الآية بقوله ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾.

وقد وردت عدة آيات تتضمن تخصيص قوم النبي ﷺ بالخطاب، ثم تعميمه على الآخرين كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧]، وقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

٤- وقد كان هذا البدء بالعرب قوم النبي طبيعيًّا إذ ليس من الممكن الميسور أن يُبلَّغ الناس جميعًا في آن واحد، وكيف السبيل إلى ذلك وهم مختلفون في ألسنتهم، ناؤون في ديارهم؛ ولذلك نزل الخطاب بلغتهم ليتمكنوا من فهمه، ثم دعوة الأمم الأخرى إلى مبادئه وتعاليمه، ويفهم هذا من قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨] ومن قوله كذلك: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وتكرر هذا المعنى في آيات عدة منها قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]. وقوله: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقد كان من حجة الله على العرب أنه أنزله بلغتهم ليفهموه قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي لقالوا: هلا أنزل مفصّلًا بلغة العرب ولأنكروا ذلك فقالوا: أعجمي وعربي، أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه، هكذا روي هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم).

وقال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]، قال الزمخشري: أي حكمة عربية مترجمة بلسان العرب. فهل يمكن أن يفهم من هذه الآيات الكريمة إلا أن الله أنزله بلغتهم ليستطيعوا فهمه وليعقلوه ويعلموه ثم ليبلغوه إلى الناس كافةً وفقًا لما أمرهم الله. ولذلك كانت اللغة العربية، وفهمها فهمًا عميقًا صحيحًا بمفرداتها وتراكيبها ومفاهيمها وأساليبها، طريقًا إلى فهم رسالة القرآن وكان تعلُّمها واجبًا على المسلمين لتوقف فهم القرآن عليها.

ولكن هذا القرآن، الذي تضمن نظرة شاملة للحياة والكون والاعتقاد بخالق أبديّ منه البداية وإليه المرجع والنهاية، كما تضمن مسؤولية الإنسان أيًّا كان عن أعماله، واشتمل على مبادئ أخلاقية وعلى نظام تشريعي مبني على أساس المساواة بين البشر، إن هذا القرآن الذي تضمَّن هذه الدعوة الإنسانية العامة، لم يبدأ بالعرب لينتهي عندهم أو ليقيم تشريعًا على أساس التمييز العرقي، وهو الذي دعا إلى المساواة بين البشر قبائل وشعوبًا، ولكنه ابتدأ بهم ليحملهم أمانة ثقيلة، واختارهم الله لتبليغ رسالة عامة للبشر، وليجعل منهم أمة معلمة مرشدة تقود الناس إلى الخير والحق.

٥- فالعقائد والمبادئ والنظم التي جاء بها القرآن لا تخص قومًا أو جماعةً ولكنها عامة للبشر، وليس العرب إلا مبلغين ومبلغين ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، وبهذا نطق القرآن فأعلن عموم رسالة محمد ﷺ قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وفي سورة أخرى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال مصرحًا بعموم رسالته إلى الناس: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وفي سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وليس بعد هذه الآيات من شك في عموم رسالة النبي العربي ﷺ وأن من شرف العرب أن يكون النبي الذي خرج من بينهم رسولًا إلى العالم يحمل إليه من الله المبادئ الصالحة لتعاون البشر في إنسانية سعيدة، وأن يكون بنو قومه هم حملة هذه الرسالة وأعوانه في تبليغها، وأن تكون لغتهم هي المعبرة عنها، وبذلك انتقلوا إلى الصعيد العالمي والمستوى الإنساني، وأصبحت كذلك لغتهم التي بها نزل القرآن لغة عالمية، لغة حضارة إنسانية.

إن هذا الشرف يحمّل العرب اليوم أمانة ثقيلة، وإن رسالة القرآن الانسانية التي شعت من بلاد العرب وبلغتهم تحمّل المسلمين في أقطار الأرض واجبًا عظيمًا هو تحرير البلاد العربية وتوحيدها لأنها الركيزة الأولى والدائمة لرسالة القرآن ودعوته الإنسانية السامية.

قال العالم المفكر الهندي المعاصر الأستاذ أبو الحسن الندوي: إن المسلم

ينظر إلى العالم العربي كمهد الإسلام ومشرق نوره ومعقل للإنسانية وموضع القيادة العالمية[١].

إن إهمال ما للعرب من موقع في بناء الإسلام، وما للغتهم وأساليبهم من منزلة في فهم شريعة القرآن ومبادئه جهل بالإسلام نفسه وتاريخه ومراحله، وإضعاف للقاعدة التي يرتكز عليها، وإن فصل العرب عن رسالة القرآن ومفاهيمه، هو فصلهم عن تاريخهم وعن حضارتهم وعن روحهم المتأصلة في نفوسهم، وتشويه لشخصيتهم، وإضعاف لقوتهم، وهبوط بهم عن مرتبة القيادة العالمية، ورجوع بهم إلى مراحل متخلفة تجاوزوها، ولا تزال بعض الأمم التي تعتبر راقية متمدنة لم تبلغها حتى اليوم.

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الباب الخامس: قيادة الإسلام للعالم، الفصل الثاني: زعامة العالم العربي.

أثر صاحب الرسالة في وحدة العرب وتوسعهم(١)

إننا لنعجب اليوم كيف كانت ذكرى مولد الرسول العربي ﷺ، وهي ذكرى ثورة وحياة وإيمان، بعيدة كل البعد في هذه العهود المنصرمة عن أن تثير شيئًا من روح محمد ﷺ القوية ومن تعاليم رسالته، تلك الرسالة التي لا تقبل ظلم الظالمين واستغلال المستغلين وبغي المستبدين. فقد تلونت حفلات مولد الرسول ﷺ في كل عصر بلون ذلك العصر، وإن لذلك قصة طويلة تخرج عن نطاق موضوعنا، وإنما أردنا أن ننبه إلى أن بين ذكرى النبي العربي ﷺ ووحدة العرب وشعورهم بالقوة والإيمان علاقة متينة، وهذا ما نريد أن نبحثه في هذه الكلمة.

* معنى الوحدة والتوسع:

إن لهذين اللفظين من الوجهة العلمية التاريخية معنى غير ما يفهمه جمهور الناس وعامتهم، وهو معنى أدق وأوضح، فلا بد من إيضاح هذا المعنى. فليست الوحدة أن يجمع حكم سياسي واحد عددًا من الأفراد في قطعة من الأرض. فقد يكون الحكم السياسي واحدًا ولا يكون بين الخاضعين له وحدة حقيقية؛ فقد تختلف وجهاتهم وتتفاوت روحياتهم. وعلى العكس من ذلك فقد تكون الوحدة الحقيقية موجودة مع اختلاف الحكم السياسي كما هي الحال في البلاد العربية - أو في أكثر أقطارها على الأقل - في عصرنا الحاضر.

(١) موضوع ألقي في نادي الكشّاف السوري، سنة ١٣٦٠ هـ. (المؤلّف).

فالوحدة السياسية غالبًا من جملة مظاهر الوحدة، ولكنها نتيجة عنها وليست سببًا لها. فلو أنك جمعت أشتاتًا من الأمم لا تؤلف بينها وحدة في الشعور الروحي وفرضت عليها نظامًا من الحكم واحدًا فهل تظن أنك بذلك تخلق بينها وحدة إذا كانت هذه الوحدة مفقودة، اللهمّ إلا إذا استطاع هذا الحكم المفروض أن يساعد ويعمل على نشوء هذه الوحدة الحقيقية. وإنما وحدة الأمة في شعور جماعة من الناس بأنها تؤلف جسمًا حيًّا واحدًا يعمل جميع أفراده أعمالًا منسجمةً تؤدي إلى تحقيق غاية واحدة. فإذا ما حصلت هذه الوحدة حصلت وتولدت جميع مظاهر الوحدة من سياسية واجتماعية وفكرية وكانت نتائج طبيعية لها وأَلِف أولئك الأفراد شيئًا جديدًا يُسمى أمّة تتميز من غيرها تميز الأجسام الطبيعية أو الأنواع الحية بعضها من بعض بخصائصها[١].

وقد تقضي الشعوب زمانًا طويلًا حتى تصل إلى هذه المرحلة، فهي تتفاوت في سرعة الوصول إليها كما تتفاوت أيضا في خصائص الأمة التي يؤلفها كل منها.

وإن هذا الانسجام الذي تحدث الوحدة بحدوثه ويتولد من جملة الظروف الطبيعية والتاريخية، يتجلى في فهم الحياة فهمًا متشابهًا حتى كأنه ضرب من الغريزة تتولد في عرق بشري فيقود أفراده إلى سلوك طرق متشابهة في الحياة وفهم الكون والحياة فهمًا متقاربًا متشابهًا، ويؤدي ذلك عمليًّا إلى اندفاعات متماثلة تؤدي بسبب انسجامها إلى غاية واحدة وتجعل هذه "الغريزة الموحدة" من الأمة جسمًا حيويًّا مستقلًا وتتولد عنها وحدة في العادات والآداب والتشريع والعقيدة والفكرة.

(١) لا نوافق أصحاب الفكرة القومية من الأوروبيين الذين يزعمون أن الفوارق بين الأمم هي كالفوارق الكائنة بين الأنواع الحية، إنما قصدنا بما أوردناه مجرد التشبيه والتقريب فقط، لا متابعتهم فيما ذهبوا إليه من تطبيق نظرية الأنواع على المجتمعات البشرية. (المؤلف).

وكلما كانت تلك الأمة أكثر انسجامًا في جسمها الحي، راقية الأعضاء والأجهزة، موزعة الوظائف قائمة بها خير قيام كانت أرفع مدنية، وأدّت إلى المدنية العامة خدمة جلى بنبوغها وعبقريتها وإنتاجها في التفكير والنظم والمؤسسات.

هذه هي "مرحلة الوحدة" في تطور الأمة. وتلي هذه المرحلة "مرحلة التوسع الحيويّ". فإن الأمم تتفاوت في الدرجات التي تصل إليها تفاوت الأجناس الحية في ارتقائها سلم الحياة. وأسباب هذا التفاوت راجعة إلى الظروف الجغرافية والاجتماعية التي تمر بها[1] والتي قد تؤدي بها إلى العقم أو إلى الخصب، ويكاد يكون في القضية شيء من الحظ المقدر لكل أمة، فإن غريزة العرق والاتجاه الذي تتجه نحوه ودرجة الانسجام بين الأفراد ليست واحدة في كل الأمم.

وعلى هذا فليس التوسع بسط أمة نفوذها بالقهر والغلبة على أمم أخرى دون أن تستطيع تأليف جسم منسجم معها، فالقوة وحدها لا تكفي لتوسيع نطاق الأمة. فهذه الدول المستعمرة اليوم قد مر عليها في بعض البلاد العربية ما يزيد على قرن ولم تستطع أن تتمثلها، ولو رفع الضغط قليلًا لرأيت الانفصال السريع بين جسمين متباينين كل التباين في روحيهما وغريزتيهما. فليس هذا من التوسع الحيوي في شيء، وإنما التوسع الحقيقي مرحلة تلي الوحدة تشعر فيها الأمة بقوتها وتؤمن بظفرها ونجاحها، وإذا كانت ذات روح قوية تمثلت البشرية جميعًا في نفسها وأصبح جسمها على حال من القوة والسلامة تمكنه من تمثل العناصر الأخرى تمثلًا حقيقيًّا ليست القوة وحدها هي الأساس فيه، وأصبحت قادرة على أن تكون مشرعة

(١) وينسب غلاة القومية ولا سيما الألمان هذا التفاوت إلى أمر غريزي ثابت في العرق لا إلى ظروف خارجية، سواء أكانت طبيعية أو اجتماعية. (المؤلف).

لنفسها ولغيرها، وربما هديت للدستور البشري العام - أو لدستور صالح لقسم كبير من البشر - تقف دونه الأمم الأخرى عاجزة حائرة.

فلننظر الآن في أمر العرب: إلى أي المراحل الحيوية وصلوا وماذا كان أثر الرسالة الإسلامية وصاحبها في ذلك؟

* العرب قبل الإسلام:

إلى أي مراحل الحياة وصل العرب قبل الإسلام؟ وما هي قيمة مدنياتهم قبل الإسلام بالنسبة إليهم وبالنسبة إلى المدنية العامة؟ إذا أطل المؤرخ من شرفته على الزمن ورجع القرون القهقرى وجد أن العرب من أقدم الأمم التي عرفت وأقواها. فإننا إذا ألقينا نظرة شاملة على تاريخهم وجدنا أن العرب أسسوا مدنيات قديمة متعاقبة تبتدئ بما ظهر في ما بين النهرين ثم تتلوها مدنيات تتعاقب خلال الزمن منتقلة من مقر إلى مقر في اليمن وفي البتراء في الأردن وفي تدمر والحيرة والشام. هذا إذا لم نذكر الأمم التي لا يزال البحث في كونها عربية رهن التحقيق التاريخي. فكان ظهور العرب في خلال هذه الفترات التاريخية الطويلة كالينابيع تظهر في بقاع من الأرض، وكأنهم يطلون على الزمن من وراء حجب الغيب ليثبتوا للعالم وجودهم ولينظروا إن كان عملهم الأكبر في تاريخ العالم قد آن أوانه، وكأن هذه المرحلة الطويلة من تاريخهم قبل الإسلام كانت مرحلة التهيئة والتجربة لرسالتهم الحاسمة في تاريخهم وفي تاريخ العالم.

وإذا نظرنا إلى حال العرب بعد هذه الآلاف من السنين التي مرت وحين ظهور الإسلام وجدنا أن لهم مراكز أربعة أو خمسة يؤلفون في كل منها بيئة خاصة لها مميزاتها:

(١) ففي الشام عرب الغساسنة وهم أهل حضارة ومتأثرون في الكثير من أحوالهم بالبيزنطيين.

(٢) وفي العراق عرب الحيرة أو المناذرة وهم متأثرون بعض التأثر بفارس.

(٣) وفي الجنوب في اليمن مملكة صغيرة مستقلة كانت لها مدنية قديمة ولكنها تعرضت لهجوم الحبشة وتأثير نفوذ الفرس فضعف شأنها.

(٤) وأما الحجاز فكان يتألف من مدن تحضرت فيها بعض القبائل البدوية حتى أصبحت مركزًا تجاريًّا دينيًّا. ويجري بين هذه المراكز والبيئات العربية مادة سيالة متحركة، هي القبائل البدوية المنتشرة من أقصى الجزيرة في جهة الجنوب إلى أقصى الشمال والشمال الشرقي منها. ولا بأس أن ننظر بعد هذا إلى الحجاز خاصة لأنها هي الأرض التي ظهر منها الإسلام.

الحقيقة أنه كان للحجاز في البلاد العربية موقع خطير جدًّا. ذلك أنه البوتقة التي كانت تنصهر فيها القبائل العربية، فتتحضر وتنقلب مادة من نوع آخر، وهي صلة الوصل بين الحياة العربية البدوية والحياة الحضرية، وهي بذلك تجمع إلى محاسن حياة البدو، من قوة ونشاط وحركة وتضحية وأخلاق قويمة، محاسن حياة الحضر من تنظيم وحياة نامية بعض النمو في الناحيتين الاقتصادية والدينية، وتتجنب مساوئ البداوة من الفوضى والإمعان في القتل واستمرار حياة الغزو، بما وجد فيها من أنظمة دينية تقتضي السلم كنظام الحرم والأشهر الحرم، وأنظمة اقتصادية وقضائية وإن تكن بسيطة، وتتجنب مساوئ الحضارة في الاستسلام إلى الرفاهية والراحة.

وتجمع إلى ذلك مزية خاصة بها وهي أنها أقل البلاد العربية تأثرًا بالمؤثرات الأجنبية الأعجمية، بل هي أصفى البيئات العربية الحضرية يومئذ جميعًا.

بقي علينا بعد هذه النظرة الموجزة العامة أن نحكم على هذا الدور الـذي سبق الإسلام من تاريخ العرب، من حيث قيمته فـي تـاريخ المدنيـة ومـن حيـث قيمتـه فـي تاريخ الأمة العربية.

أمـا مـن الناحيـة الأولـى فـإن التـاريخ لـم يعـط بعـد جوابـه النهـائي فـي هـذا الموضوع، أي أنه لم يجب بعد جوابًا كاملًا على هذا السؤال: مـاذا خلفـت المـدنيات العربية القديمة من أثر في المدنية العامة؟ ذلـك أن هـذا السـؤال يتوقـف علـى معرفـة الأمم القديمة التي يمكن أن تسمى عربيـة، وهـي ولا شـك أكثـر ممـا نتصـور ونعـرف الآن، ويتوقف على تحقيقات أخرى لـم تنتـه بعـد، ولكننـا لا نشـك بالاسـتناد إلـى مـا وصلت إليه الأبحاث التاريخية اليوم أن هذه المدنيات العربية القديمة كـان لهـا أثرهـا فيما أتى بعدها من مدنيات يونانية ورومانية وفارسية في التشريع والإدارة والعلم.

أما الحكم على هذه المرحلة بالنظر إلى تاريخ الأمة العربية، وهي الناحية التي تعنينا الآن، فيمكن تلخيصه بأن هذه الموجات العربية المتعاقبة، وما ظهر للعرب مـن مدنيات، تدل على أنهم شعب قديم قوي امتد على مساحة من الأرض واسعة، ورأى من الحياة ألوانًا مختلفة من البداوة إلـى درجـات عاليـة فـي الحضـارة، وكـان لا يـزال قبل الإسلام محتفظًا بهذه الألوان المختلف، وخلف آثارًا في المدنية.

ولكن لم تكن قد نشأت بعد وحدة عامة تشعرهم شعورًا واضحًا قويًّا بأنهم أمة واحدة، ولا ظهر بعد الشعور المشترك العام الذي يشـملهم جميعًـا. فكانـت مـدنياتهم موضـعية خاصـة، وفـي كثيـر مـن الأحيـان ولا سـيما قبيـل الإسـلام، متـأثرة بتـأثيرات أجنبية فارسية أو بيزنطية. لـم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلـة الوحـدة الحيويـة التـي أشرنا إليها، فضلًا عن مرحلة التوسع الحيوي، وبعبارة موجزة: لـم تظهر بعد رسالتهم

الكبرى التي تحتاج قبل كل شيء إلى جسم حيٍّ متصل الأجزاء منسجم الأعمال والوجهات، وذلك أمر لم يتم إلا بالإسلام.

* الإسلام:

وهنا نقف بإجلال أمام هذه المعجزة الإلهية التي قضى الله أن يجعلها في تاريخ العرب، أمام تلك الرسالة التي شرفهم الله بها. ولا نشك في أن الله كما قدر أن يكون النبي منحدرًا من أشرف الآباء، قدر كذلك في أحكام غيبه أن يكون العرب من أشرف الأمم وأطهرها، ليجعل منهم حملة دينه وقرآنه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، وليخرج من بين أظهرهم أشرف رجل خلقه، وحامل خاتم رسالاته وأوسعها وأعمها.

أسميها "معجزة" لأنها في الحقيقة نقلت العرب بقفزة واحدة إلى مرحلة التوسع الحيوي من حالة الجسم الذي لم تلتحم بعد أجزاؤه ولم تنضج حيويته. نقلتهم من الوحدات الحيوية المتفرقة إلى حال الأمة التي تشعر شعورًا مشتركًا لا أنها متحدة فحسب، بل أن عليها واجب قيادة الأمم في شيء كثير من الإيمان والقوة ومن غير غرور. هي قوة ولكن ليس غذاؤها الطمع والجشع، وهو توسع وفتوح ولكنه ليس استعمارًا ولا استعبادًا.

ظهر الرسول والعرب موزعون من أقصى اليمن إلى بلاد الشام والعراق كأنهم بقع مائية لا تكاد تصل بينها إلا خيوط دقيقة جدًّا، أو كأنهم تلك القطع السديمية الحائرة غير المتصلة ولا المنسجمة. وكانت هذه الكتل العربية في حاجة إلى من يجمعها ويقطع عنها التأثيرات الأجنبية التي تحيط بها، ويفرض عليها نظامًا يوحد ما بينها من اختلاف في النظم والتفكير والعادات. وقد كان أثر الإسلام وصاحب الرسالة

أكثر من ذلك كله، إذ إنه ما اقتصر على هذا الجمع والتوحيد بل تجاوزهما إلى مرحلة التوسع الحيوي، إلى مرحلة جعل فيها من العرب قوادًا ومشرعين عالميين.

ويتلخص عمل الرسول وأثر رسالته في العقيدة والنظام الاجتماعي بإبعاد كل تأثير أجنبي وجمع المراكز الحيوية المشتتة في مركز واحد، والقضاء على جميع المراكز الموضعية المجزأة في بلاد العرب وتوحيد مفهوم الحياة عندهم جميعًا. وإن هذا التوحيد يتجلى في العقيدة والنظام الاجتماعيّ والدينيّ.

فأما من ناحية العقيدة والعبادة فقد كانت في الجاهلية ملائمة للانقسام القبلي، فقد كان لكل قبيلة إله خاص بها، وكان لبعض القبائل كقريش امتيازات دينية خاصة، وكانت الأديان الأخرى كالنصرانية واليهودية مشوبة بتأثيرات أجنبية ولهذا لم تنتشر في العرب. استبدل الإسلام بهذه العقائد المحلية أو الأجنبية عقيدة بسيطة كل البساطة واحدة عامة شاملة، تلائم الحالة الاجتماعية الجديدة. فإن الاعتقاد بإله عام واحد يقابله في المجتمع نظام اجتماعيّ واحد.

وإذا نظرنا إلى العبادة المتصلة بهذه العقيدة وجدناها قديمًا مشتتة، فهناك مراكز دينية مختلفة غير الكعبة. وقد قضى الإسلام على كل مركز آخر غير الكعبة، ونسخ منها كل ما كان يتجه إلى ما هو خارج الجزيرة أو يذكر به، فنسخ التوجه إلى قبلة اليهود وجعل القبلة إلى جهة الكعبة، فقلب الجزيرة هو القبلة. وأقر في العبادة كثيرًا من الشعائر العربية القديمة، ولاسيما في الحج، مع إلغائه منها ما كان له شكلًا موضعيًّا أو قبليًّا. وأما قيمة هذه العقيدة وأثرها الكبير في المدنية فهو خارج عن بحثنا هذا.

هذا في العقيدة والعبادة، وأما في النظام الاجتماعيّ فقد ألغى جميع النظم

الموضعية المجزأة، فألغى نظام القبيلة وكل ما يتعلق به من تشريع وألغى قانوني الغزو والثأر والمسؤولية القبلية والمفاخر والامتيازات القبلية واستبدل بكل ذلك نظامًا اجتماعيًّا وسياسيًّا يقوم على ركنين: الفرد والأمة.

وإذا نظرنا إلى العادات التي دعا إليها والتي قضى عليها وجدنا الاتجاه نفسه: إلغاء العادات الموضعية والتنفير من العادات الأجنبية، ولهذا نجد في كثير من الأحاديث على سبيل التنفير مثل قول الرسول: (لا تفعلوا كما يفعل الأعاجم)(١). بل نجد قاعدة عامة في ذلك ينص عليها حديث مشهور: «خِيارُكُمْ في الجاهلية خِيارُكُمْ في الإسلامِ إذا فَقِهوا»(٢)، وأخيرًا تم بالإسلام توحيد اللغة. فقد قضى القرآن على اللهجات المختلفة وأصبح كتاب العرب الوحيد، وأصبحت لغته هي اللغة العربية دون سواها من اللهجات.

وأعظم من ذلك الفهم التاريخي الذي يفرضه القرآن ويعطيه الإسلام عن نفسه، إذ يبين أنه تتمة لدين إبراهيم، الدين الصافي الأول الذي عبد الله به في مكة. فالإسلام عودة إلى صفاء هذا الدين وإتمام له. وهذه النظرة التاريخيّة القرآنيّة تتفق وما قلناه في ابتداء البحث من اعتبار تاريخ العرب يبدأ بظهور أقدم مدنياتهم فيما بين النهرين.

والمعجزة في عمل محمد عليه السلام في كل ذلك هي أنه لم يسلك للوصول إلى هذه الوحدة طريق الكلام والوعظ المجرد، بل كان ذلك نتيجة طبيعية لنشر عقيدة

(١) النهي عن تقليد الأعاجم جاء في مواقف عدة في حياة النبي ﷺ، منها حديث أبي أمامة عند أبي داود وغيره: «لا تَقُومُوا كما تَقُومُ الأعَاجِمُ، يُعَظِّمُ بعضُها بعضًا».

(٢) رواه البخاري في صحيحه بلفظ مقارب، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، رقم (٣٣٨٣) الطبعة السلطانية، ورواه مسلم في باب خيار الناس، رقم (٢٥٢٦)، وهو باللفظ المذكور عند الإمام أحمد في المسند.

دينية ونظام اجتماعيّ.

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقول إن عمل الرسول ﷺ وظهور الإسلام هو العمل الحاسم في تاريخ العرب والأول من نوعه الذي أدى إلى تكوين أمة واحدة منهم تشعر بأنها جسم واحد وتتحرك بحركة واحدة منسجمة؛ مركزها قلب الجزيرة وتتجه إلى خارجها بقوة. وهو فوق هذا جعل من هذا الجسم الحي المنسجم، من هذه الأمة، أمة مشرعة للعالم، داعية مدنية وقائدة أمم. فلم يكتف بالمركزة والتوحيد بل تجاوز إلى الحياة النامية المتسعة. وإن في فهم العرب رسالتهم عامة خالدة، موضوعة في دستور تريد أن تشرعه لجميع الناس لدليلًا على أن العرب قدر الله لهم أن يصلوا إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه أمة من الأمم في الحياة. وإن في ذلك ما يجعلنا دومًا متفائلين لأن العرب لم يتموا بعد رسالتهم ولم يصلوا بعد إلى مرحلة الشيخوخة والهرم، لأنهم لم يكادوا ينشرون رسالتهم في مدى القرون الثلاثة الأولى في أصفى أشكالها وفي أرقى ما عرفه البشر حتى ظهرت عليهم الأمم الأخرى ولم تفهم رسالتهم حق الفهم، فتغيرت معالمها وتبدلت، وظهر في الإسلام خصائص هذه الأمم الأخرى في أشكال مختلفة. ففي السياسة ظهر المفهوم الفارسي الاستبدادي، وفي النظام الاجتماعي إقطاعيتهم، وفي الدين الصوفية الهندية، وفي الناحية العقلية ثرثرة التفكير اليوناني والمنطق الجامد الفاقد للمرونة.

ولكن بالرغم من كل ذلك، ظلت رسالة العرب تعمل عملها في المدنية حتى في العصور المظلمة التي كان العرب فيها مقصون عن السيادة. فمحمد ﷺ إذن، بما نفذه وبلغه من الوحي الإلهي، وحد العرب وجعل منهم جسمًا حيًّا من الطراز الأول لا أعتقد أن أمة من الأمم وصلت إلى مثله. وإن رسالة العرب لم تنته ولن تنتهي، وهي رسالة حرة لا تقبل الاستعباد ولا القيود، رسالة قوة لا تقبل الذل والضعف،

رسالة شعور قوي وإيمان بالله وبنصره، رسالة طموح وسمو لا قناعة وقعود. فلنتخذ من ذكرى محمد ﷺ ما يبعثنا على العمل لما عمله قبل كل شيء من توحيد العرب، ثم دعوتهم لإتمام رسالتهم السامية في هذا الكون فإن العرب باقون في الأرض ما بقيت ورسالتهم رسالة الخلود.

البطولة العربية

* بين المادية والمثالية:

لا يزال يذكر الناس في دنيا العرب، وفي أوساط الشعوب الإسلامية، عدل عمر وحزم أبي بكر ومثالية عليّ وزهد عمر بن عبد العزيز وشجاعة خالد بن الوليد وحنكته في إدارة المعارك، وكرم حاتم وحكمة زهير وشجاعة عنترة وجهاد صلاح الدين.

إن هذه الصفات خلدت أصحابها حتى عرف كل واحد من هؤلاء في جمهور العرب والمسلمين بصفته البارزة التي جعلته حيًّا في القلوب ماثلًا في الأذهان.. قدوة لملايين البشر.

ذلك أن من خصائص هذه الأمة العربية أنها تقدر العمل لذاته، وتخلد الصفة التي تستحق التخليد؛ فلا تلتبس الصفة بالشخص فيقدس الشخص بدلًا من الصفة، وذلك خلافًا للأمم الأخرى التي التبست لديها البطولة بين الشخص والصفة والعمل، فقدّسوا الأشخاص وخلدوهم لذاتهم بدلًا من تخليد صفاتهم ومكارمهم، وكان لذلك عند غير العرب مظاهر واضحة من ذلك ما كان عند اليونان قديمًا؛ وعند الهنود حتى في العصر الحاضر، من تصنيف أبطالهم بعد موتهم في طبقة الآلهة، ومن ذلك تخليدهم لأجسامهم بتحنيطهم كما هي عادة الفرعونيين، أو اتخاذ تماثيل لأجسادهم كما هي عادة الرومان واليونان قديمًا والأوروبيين حديثًا. بينما يتخذ العرب تماثيل في قلوبهم لمكارم أبطالهم فلا يخلد البطل في لحمه ودمه ولون بشرته ومعالم جسمه وإنما يخلد ذكره وتحمد أفعاله قال حاتم لزوجته:

أَمــــاوِيَّ إِنَّ المـــالَ غـــادٍ وَرائِـــحٌ * وَيَبقـى مِـنَ المـالِ الأَحاديـثُ وَالـذِكرُ

وقالت الخنساء في أخيها صخر:

تَـــرى الحمـــدَ يَهـــوي إِلـــى بَيتِـــهِ * يَـــرى أَفضَـــلَ الكَســـبِ أَن يُحمَـــدا

وقالت:

نَعِـــفُّ وَنَعـــرِفُ حَـــقَّ القِـــرى * وَنَتَّخِـــذُ الحَمـــدَ ذُخـــرًا وَكَنـــزا

وهذا الالتباس بين الشخص والصفة التي تستحق التخليد موجود عند الأمم غير العربية سواءً أخذ التخليد معنى دينيًّا أو غير دينيّ.. ففي مجال الدين انقلب تكريم الأشخاص الصالحين والأبطال لدى تلك الأمم الأعجمية عبادة وضربًا من الوثنية؛ ونوعًا من الشرك وتعدد الآلهة، حتى أن كثيرًا من رجالات الإسلام من طبقة الصحابة أو من بعدهم غدوا في نظر الكثير من أبناء هذه الشعوب الإسلامية غير العربية في محل من التقديس يجعلهم في مرتبة تتجاوز البشرية واعتقد بعضهم تجلي الألوهية في كثير من هؤلاء سواءً من آل البيت أو الصحابة أو رجال السلف الصالحين أو غيرهم أيضًا وهذا ما حدث كذلك عند الهنادك والبوذيين وغيرهم.

وقد يأخذ هذا التخليد معنى غير المعنى الديني ولكنه يبقى مع ذلك نوعًا من الوثنية والخضوع للبشر أو تقديس ناحيتهم المادية كما هي الحال بالنسبة إلى الغربيين من أهل أوروبا وأمريكا في تخليدهم لرجالاتهم من الأحياء أو الأموات.

إن العرب بفطرتهم يميزون بين العنصر الخالد الباقي، وهو الخلق أو الصفة الكريمة التي اتصف بها العمل كالعدل والكرم، والعنصر الفاني وهو الشخص نفسه بلحمه ودمه. إن البطولة في عمل خالد بن الوليد لا في شخصه، فإذا عزل خالد فإن العمل يجب أن يستمر؛ وإن وظيفة الرسول بتبليغ الرسالة، فإذا مات وانتقل إلى

جوار ربه فإن رسالته باقية والعمل بها مستمر (من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت).

وقد كان لهذه النظرة أثر في حياتهم السياسية والأدبية، فشيخ القبيلة في الجاهلية والأمير والإمام في الإسلام يتبع ويطاع ما دام على طريق الحق، قائمًا بالقسط، فإذا انحرف أو شذ، أو جار وظلم فلا طاعة له على الناس، فطاعته ليست متعلقة بشخصه ولكن بوظيفته وخطته.. وقد جاء الإسلام منسجمًا مع هذه الفطرة جاريًّا على هذا السنن فلا يعبد إلا الله.. ولا يكرم الرجل أو يعظم إلا لعمله الصالح أو جرأته في الحق أو لعلمه. وقد حارب الإسلام أشد المحاربة الخضوع للأمراء والأغنياء لمجرد غناهم أو سلطانهم، وعد ذلك نوعًا من الشرك ودعا إلى تكريم الفضائل في ذاتها أينما كانت وازدراء الرذائل أنى وجدت.

ولذلك كان العرب بفطرتهم أحسن الناس فهمًا للإسلام وقدرة على تطبيقه، واحتاج غيرهم من الأمم الأخرى إلى تعلمه وأن يروضوا أنفسهم بالتعليم والتربية والمران حتى يحسنوا تطبيق ما جاء به الإسلام لغلبة الوثنية عليهم وتعلقهم بالأشخاص والأشباح. ومن مظاهر هذه الخاصة في أدب العرب أن القصة قائمة على معنى كريم أو دائرة على مأثرة أو مكرمة فلا يذكر من الأبطال أو الحوادث إلا ما لا بد منه لتقوم القصة بمعناها وتؤدي غايتها، على خلاف القصة في آداب الأمم الأخرى فهي تقصد لما فيها من حوادث ومفاجآت وأوصاف حسية لأبطالها، والقصة في الأدب العربي حقيقة لا خيال وهي عند غيرهم خيال، ذلك أن العرب يعيشون في حقائق الأخلاق، ويعيش غيرهم في تخيلها وتصورها. وهذه الخاصة في تمييز العنصر المعنوي الخالد من العنصر المادي الفاني عند العرب سر من أسرار

اختيار الله لهم لتبليغ رسالته إلى الناس كافة دون غيرهم من الأمم. ففي العرب استعداد وفطرة وفي الإسلام فكرة وتجريد وخلود ومثالية.

وقد هيأ الإسلام لهذه الفطرة العربية ميادين واسعة لتحقيق البطولة في أرفع أشكالها ومجالات إنسانية لإظهارها في أسمى أنواعها لتكون نموذجًا تحتذيه الأمم ومثالًا تقتدى به الشعوب. فقد تحققت البطولة العربية في ميدان اكتشاف الكون وآفاقه، واختراق البلدان والقارات في البر والبحر، وتحققت خاصة في ميدان تحرير البشر من حكامهم الظالمين وأنظمتهم الفاسدة وأهوائهم الضالة، تحققت في ميادين العلم والفكر، وفي آفاق النفس واستشفاف خطراتها ونزعاتها ومشاعرها، فكان العرب المادة التي اتخذها الإسلام لتحقيق مبادئه، وكان الإسلام الفكرة التي حققت البطولة العربية في أروع الأشكال وأوسع الميادين.

إن العرب اليوم قد عادوا سيرتهم الأولى، ليرفعوا من الرجال من يحقق لهم العزة والسيادة والحرية والقوة، ولو خرجوا من غمار الشعب فهم يرون فيهم أبطالًا. وليخفضوا من أرادوا لأمتهم الذل والعار، وأرادوا بيعها في سوق الاستعمار الدولي وعبدوا الدينار وسجدوا لأصحابه ولو كانوا ملوكًا.

إن روح البطولة العربية تستيقظ اليوم من جديد في كل واحد من أبناء هذه الأمة وليس قادة الثورات التحريرية إلا معبرين عنها عازفين على قيثارتها نغمات الحرية والسيادة. وإن الذين حققوا النصر والمجد والعزة في العالم لأمتهم العربية في الغابر لم يكونوا ملوك الغساسنة، ولا ملوك المناذرة، ولكنهم كانوا أولئك الذين لم يكن يعرفهم أو يسمع بهم أحد من الناس من قبل. إن الرسول العظيم، اليتيم الفقير، وأتباعه وأصحابه من أبناء الصحراء والبلد الحرام هم الذين جلبوا السعادة

للعالم وأكسبوا العرب شرف الدفاع عن المظلومين والمحرومين وحماية الحقوق ورد المظالم وتحرير البشرية فكان للعرب المنزلة العظمى عند الله والذكر الخالد في التاريخ.

وإن المعارك اليوم أمامنا لنرد عدوان المعتدين أيًّا كانوا إرضاءً لله وتحقيقًا لشرائعه كلها وتصديقا لحقيقتنا ودفاعًا عن أنفسنا وعن تراث الإنسانية الذي نحن حماته وحراسه، وأما الاستعمار وأجراؤه وعملاء الصهيونية فهم ناهبو كنزه ومخربو بنائه وصرحه.

* مفهوم البطولة عند العرب:

يختلف مفهوم البطولة من أمة إلى أمة اختلافًا كبيرًا. وللبطولة عند العرب معنى يختلف عن معناها عند الأمم الأخرى، ويتجلى للبطولة عند غير العرب مفهومان أو معنيان: أحدهما مفهوم الغربيين الماديين قديمًا وحديثًا. فالقوة والتغلب على الخصم بالحق أو بالباطل، وتجميع الثروة والمال، وفتح البلاد واستعمارها وتكوين الإمبراطوريات الواسعة، والذكاء والدهاء في أي طريق استعملا في الخير أو الشر في الأذى والنفع؛ كل ذلك من البطولة، ولو أن صاحبها أزهق الأرواح وداس الحقوق وظلم الضعفاء واستعبد الناس.

ومفهوم آخر عند الشرقيين الروحيين يتجلى في الزهد التام في الحياة ومتعها وإضعاف الحواس والجسد، ومقاومة الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، والوقوف من معارك الحياة سواءً مع الطبيعة أو في المجتمع البشري موقفًا سلبيًّا، والفرار إلى حياة روحية يزعمون خالصة.

أما مفهوم البطولة عند العرب، فلم يكن في يوم من الأيام قريبًا من أحد هذين المفهومين؛ قد تكون هذه البطولة ضيقة النطاق محدودة الأفق في عصر ما كالعصر الجاهلي، وواسعة النطاق متعددة الآفاق في الإسلام، ولكنها كانت دومًا من نوع واحد وطبيعة واحدة ومتجهة في اتجاه واحد.

إن البطولة عند العرب تتجلى في فعل الخير والإقدام عليه، في فعل المكارم والمحامد والمروءات. إنها تتجلى دومًا في تقديم ما ينفع الناس للناس، وفي تقديم الخير سواءً أكان هذا الخير مالًا يقدم أو علمًا يفيد أو إعانة على حق أو إغاثة لملهوف. ولذلك كان لفظ الخير في العربية دالًّا على كل هذه المعاني، ولو جر ذلك إلى خسارة المال أو غيره مما يعز على الإنسان حتى نفسه، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

لقد تجلت هذه المعاني عند العرب في الجاهلية قبل الإسلام ضمن نطاق حياتهم القبلية، وفي محيط الصحراء توارثوها جيلًا بعد جيل كما قال شاعرهم:

سَجِيَّةٌ تِلكَ فيهِمْ غَيرُ مُحدَثَةٍ * إِنَّ الخَلائِقَ فاعلَمْ شَرُّها البِدَعُ

أو كما قال الآخر:

فَما يَكُ مِن خَيرٍ أَتَوهُ فَإِنَّما * تَوارَثَهُ آباءُ آبائِهِم قَبلُ

لم يكن العرب ليتهالكوا كغيرهم على لذائذ الحياة ولو دنست شرفهم أو أدخلت الضيم والظلم على غيرهم، وليسوا كاليهود وغيرهم من الأمم الحريصة على الحياة بأي ثمن، يقول المتلمس الشاعر الجاهلي:

أَلَمْ تَرَ أنّ المرءَ رهنُ منيّةٍ * صَريعٌ لِعافي الطَيرِ أَو سوفَ يُرمَسُ

فَلا تَقبَلَن ضَيمًا مَخافَةَ ميتَةٍ * وَمُوتَنْ بِها حُرًّا وَجِلدُكَ أَملَسُ

والمال لا يكسب الإنسان الشرف فقد ينال الشرف العظيم وهو فقير:

قَـد يُـدرِكُ الشَـرَفَ الفَتـى وَرِداؤُهُ * خَلَـقٌ وَجَيـبُ قَميصِـهِ مَرقـوعُ

والعربي يدفع بفضله، وهو كل ما يزيد عنده من مال أو جهد إلى غيره ولا يبخل به، فالمال إنما يجمع لأداء الحقوق وصنع المعروف، قال عروة:

دَعيني أُطَـوِّف فـي البِلادِ لَعَلَّني * أُفيدُ غِنىً فيهِ لِذي الحَقِّ مُحمِلُ
أَلَيسَ عَظيمًا أَن تُلِمَّ مُلِمَّةٌ * وَلَيسَ عَلَينا في الحُقوقِ مُعَوَّلُ

ولذلك كان المال عنده وسيلة لا غاية، كما هو الآن في حضارات الغرب في أوروبا وأمريكا، ولكنها وسيلة تصلح لأن ينتفع بها وينفع بها الناس وليس رجسًا يتجنب ويزهد فيه كما هي الحال عند الشرقيين، ولهذا فإن زيادة المال لا تبطره، ونقصه لا يذله، ويفقر نفسه لأن المال منوط به وليس هو المتعلق بالمال، وقيمة المرء بنفسه وفضله لا بماله، يقول حاتم:

غَنِينَا زَمَانًا بِالتَّصَعْلُكِ وَالْغِنَى * وَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ
فَمَا زَادَنَا بَغْيًا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ * غِنَانَا وَلا أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ

والعربي يستمد معاني الخير هذه من منبع الخير ومصدره، من الله الذي آمن به منذ عهد بعيد ولو شاب إيمانه في بعض الفترات شيء من الشرك أو الوثنية الداخلة عليه من الخارج، وهو يعتقد بخلود الأعمال الصالحة يقول الحارث بن عباد:

كُلُّ شَيءٍ مَصيرُهُ لِلزَوالِ * غَيرَ رَبّي وَصالِحِ الأَعمالِ

ويقول امرؤ القيس:

وَاللَهُ أَنجَحُ ما طَلَبتَ بِهِ * وَالبِرُّ خَيرُ حَقيبَةِ الرَّجلِ

ويقول النابغة:

لَهُم شيمَةٌ لَم يُعطِها اللَهُ غَيرَهُم * مِنَ الجودِ، وَالأَحلامُ غَيرُ عَوازِبِ

ولذلك فهو يفعل الخير لا ليثيبه الناس، فإن مرجع إيمانه بالخير والعمل الصالح إلى الله، يقول قيس بن الأسلت في أسير عفا عنه:

أسرت مخلدًا وعفوت عنه * وعند الله صالح ما أتيت

ويقول عبيد بن الأبرص:

مَن يَسأَلِ الناسَ يَحرِموهُ * وَسائِلُ اللَهِ لا يَخيبُ

ويقول الحرثان بن الحارث العدواني:

إن الذي يقضب الدنيا ويبسطها * إن كان أغناك عني سوف يغنيني

اللّه يعلمكم واللّه يعلمني * واللّه يجزيكم والله ويجزيني

فلما ظهر الإسلام، وخرج محمد بن عبد الله صلوات الله عليه من بين أظهرهم، ترسخت معاني البطولة هذه واتسعت آفاقها. وخرج العرب من صعيد إكرام الضيف في الصحراء وبذل الفضل وعمل المعروف في ذلك النطاق، إلى بذل الخير الأكبر إلى البشرية في الصعيد الإنساني.

لقد وجد الإسلام في العرب دعامة راسخة، واستجابة حاضرة، واستعدادًا قدره الله في الأزل. لقد قضت حكمة الله في أن يبعث في الأميين وهم العرب ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، وأن يتخذ من العرب تراجمة دينه، وحملة رسالته، وشراح دعوته، والنموذج الإنساني الأول لتطبيق المبادئ الخالدة التي أرادها للبشر جميعًا. وإن الذين يطعنون في العرب ويجعلونهم قبل الإسلام همجًا متوحشين منغمسين في

الرذائل خالين من المكارم؛ إنما يطعنون في حكمة الله واختياره، ويطعنون في المعدن الذي منه خرج أشرف البشر وصفوة الخلق محمد رسول الله. بل يسفهون قولَه، وقولُه أرفع من أن ينال منه نائل إذ يقول: «أنا خيار من خيار من خيار» وإذ يقول: «الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

لقد كان العرب في الجاهلية قوة مضيّعة، وفطرة طيبة أصابها في عهد الفترة بعض الشوائب فكانت تلك النقائص التي انتقدها القرآن وصححها. لقد ضلوا الطريق وهم سائرون، وليس ضلالهم ترديًّا في السفاسف أو الخنا، ولكنه حيرة وغفلة وخطأ اتجاه. قال تعالى في وصف رسوله الكريم ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]. لقد وجد العرب في الإسلام الفكرة المواتية لتزكية مواهبهم، والتربة الصالحة لنمو مكارمهم، والعقيدة العادلة التي تتجاوب مع نفوسهم، فوعوها وحملوها وكانوا خير واع لها وخير داع إليها. وجعلهم الله المسؤولين عن فهمها وحملها، مسؤولية مستمرة إلى آخر الدهر لا تنفك عنهم، ولا يمكن بغير هذا المعنى أن نفهم معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، فهم الذين يعقلونه إذ نزل بلغتهم، وهم الذين يبلغونه إلى غيرهم قولًا وفعلًا، وهم المسؤولون عن أنفسهم وعن الإنسانية كما يُسأَل المربي والمعلم عمن عُهِد إليه بتعليمه وتربيته ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

إن ما أوتي العرب قبل الإسلام من فطرة سليمة، وما حازوا من المكارم والمحامد أصبح بعد الإسلام مصدر خير للإنسانية، ومعدنًا تظهر منه البطولات الحقيقية في الأفق الإنساني الجديد لتقدم للإنسانية نوعًا جديدًا من البطولات الحقيقية التي ترقى بالإنسان والإنسانية دون أن يغادر فطرته وطبيعته، ودون أن يفر من معركة الحياة نحو الغايات المثلى والحياة الخالدة. وبهذا الأفق الجديد الذي

فتحه الإسلام بفكرته وبهذه الوجهة التي حددها في آفاق الحياة اللانهائية جعل من بطولات علي وعمر وخالد وأبي عبيدة المحلية القبلية، التي كانت تبيد مع رمال الصحراء بطولات عالمية خالدة.

* مراحل البطولة العربية وخصائصها:

نحن في أيام أحوج ما نكون فيها إلى أن نعرف أنفسنا ومكامن القوة فيها، وأن نتدارك تلك الهوة السحيقة التي فصلت بيننا وبين عهد البطولات من تاريخنا، لنصل البطولات الجديدة بالسالفة، والمعارك الحاضرة بالغابرة، لنسير على مستوى أعلى قمة بلغناها، متقدمين إلى الأمام نستقبل نصرًا بعد نصر، حتى نلقى الله وقد بلغنا الرسالة، وأدينا الأمانة، وحققنا قوله فينا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

نحن في حاجة اليوم لأن نعرف تاريخ بطولاتنا ومراحلها وأطوارها وخصائصها وسماتها، واتجاهها وغايتها.

لقد مرت البطولة العربية في مرحلة استعداد وتكوين قبل الإسلام، وكانت المروءة رائدها، والشرف مقياسها، والوفاء والكرم والنجدة والشجاعة والشهامة أجنحتها. وكان العرب في ذلك العصر، عصر الإعداد والتكوين، كما قال شاعرهم:

يَستَعذِبونَ مَناياهُم كَأَنَّهُمُ * لا يَخرجُون مِنَ الدُنيا إذا قُتِلوا

وليسوا كاليهود الذين قال الله فيهم ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]. لا يغدرون، ولكنهم لا يقبلون الضيم، ولا يقيمون على الذل والهوان:

إِنّا نَعِفُّ فَلا نَريبُ حَليفَنا * وَنُجِرُّ في الهَيجا الرِماحَ وَنَدَّعي

وَنَخوضُ غَمرَةَ كُلِّ يَومِ كَريهَةٍ * تُردِي النُفوسَ وَغُنمُها لِلأَشجَعِ

ولكن البطولة العربية بقيت في هذه المرحلة منحصرة في صعيد الجزيرة العربية وفي إطار القبيلة أو بين القبائل، وظلت بالنسبة للعالم ثروة مكنوزة ومعدنًا مخبوءًا لم يستثمر، وبقيت معارك عنترة ودريد بن الصمة ومغامرات السليك وتأبط شرًّا أحاديث تدور بين قبائل العرب، ووقعة ذي قار على ما فيها من انتصار منفردة غير متلاحقة، عقيمة غير منتجة. فلما ظهر الإسلام ونزل وحي السماء برسالة القرآن سجلت البطولة العربية مرحلة جديدة خصبة غنية:

فقد خرجت من صعيد الجزيرة إلى الأفق العالمي، ومن الحوادث الفردية المنعزلة إلى النطاق الاجتماعي والعمل المتصل المستمر المتجدد.

وغدا العرب بالإسلام أمة موحدة لا أفرادًا وقبائل فحسب، يوحدها هدف تسير نحوه ورسالة واضحة المعالم تؤمن بها وتدعو إليها، وغدَوا دولة منظمة ذات قيادة واعية متجردة، وأصبحت الحياة العربية في ظل الإسلام مدرسة لتخريج الأبطال، فكثرت البطولات والعبقريات، وتوالت وتنوعت، فأبو بكر وعمر وعلي وأبو عبيدة وخالد وأسامة وسعد وعمرو، ومن بعدهم محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وطارق وموسى، وغيرهم من أبطال السلم والحرب في السنين الأولى من الإسلام، هم قليل من كثير من أولئك الأبطال الذين حرروا الشعوب يومئذ من ظلم المتحكمين والطغاة، ونشروا لواء العدل في شعوب العالم المعروف في ذلك الحين.

إن من مزايا البطولة العربية في هذه المرحلة أنها تعلقت بالقيم الخالدة التي هي: الإيمان بالله والشعور بالمسؤولية الكبرى أمامه وبما يوجبه ذلك من إقامة العدل بين عباد الله والمساواة بينهم وحماية الضعيف وتحريره من ظلم القوي. ومن مزاياها أنها كانت مشاعة بين الناس غير محتكرة لأحد، فلا خلود ولا قدسية لأحد

من الناس، فما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وما خلفاؤه إلا قادة يتبعون ما داموا سائرين على سنن الحق، ويطاعون ما داموا ينهجون طريق الخير، والعبرة لجمهور الأمة وللجماعة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فليس يدرى من سيكون من بين الناس البطل، ومن سيحمل الراية، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وليس محتكرًا للأغنياء أو ذوي الأنساب أو أبناء الملوك، فكان الوعي العام والإيمان المنتشر في القلوب أرضًا منبتة للبطولات.

ومن مزايا البطولة العربية في هذا الطور أنها ذات هدف واضح وغاية إنسانية، وهي تحرير البشر، لا الامتياز أو الاستعلاء أو التفاخر بالمساحات المفتوحة وبعدد القتلى والأسرى. فالمعارك المتلاحقة في أطراف الأرض يومئذ، والتي كانت مظهرًا لبطولات كثيرة، كانت معارك تحرير إنساني في سبيل المستضعفين في الأرض من الرجال والنساء والولدان.

لقد كانت البطولة العربية درسًا نموذجيًّا لشعوب العالم، تعلمها الإنسانية والمثل العليا، وتنقل إليها الفضائل التي كانت تحملها في نفوسها، والمبادئ الأخلاقية التي تلقتها من وحي السماء، لتجعل هذه الفضائل وتلك المبادئ مشاعة بين أمم الأرض وشعوبها.

إن التقاء المبادئ المنزلة من السماء في رسالة كاملة ختمت بها الرسالات وتجاوبها مع الفطرة العربية التي أعدها الله أحسن الإعداد جعل من البطولة العربية النموذج الكامل الذي يصلح أن يكون للعالم مثالًا يحتذى، فكانت في تاريخ العالم مثارًا لعبقريات وبطولات في مختلف الشعوب جاءت على مثال البطولات

والعبقريات العربية التي اتخذتها إمامًا وقدوة ومثالًا، فكانت البطولة العربية بالإسلام سبيلًا إلى توحيد الشعوب على صعيد إنساني وفقًا لهذا النموذج الرائع.

ولسنا نقول هذا لنكتفي بالقول ونغتر بفعل الماضين من الأجداد والسلف، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم.

والبطولة العربية اليوم في مرحلة ثالثة، فهي تستيقظ بعد غفوة، وتنهض بعد كبوة، وتتحرك بعد ركود. لقد أحلها الأبطال من جنود محمد ﷺ مكان الصدارة من العالم، وأقاموها مقام المعلم المرشد والدليل الهادي من الشعوب. هي اليوم تثور لتخرج نفسها من منزلة التبعية لمن كانوا لها تابعين، ومن الخضوع لمن كانوا لها خاضعين، ولتتحرر من الإباحية والظلم والأنانية والمادية والعصبية التي حررت هي العالم منها من قبل. إنها اليوم في مرحلة التحرر من الاستعمار والخضوع، والاستعباد والتبعية، ومن الظلم والأثرة، ومن الوثنية والمادية. إن الثورات تتلاحق وتتابع، والمعارك يسطع لهيبها في كل بلد، معارك مع الأجنبي المستعمر الممثل لظلم القياصرة، ومعارك مع الحكام الخونة الموالين له الجاحدين لفضل الله على أمتهم.

إن البطولة العربية تبعث اليوم من جديد لتسمو إلى القمة التي كانت بلغتها وأشرفت منها على الإنسانية، ولتكمل بعد ذلك سيرها إلى الأمام.

❊ مدرسة البطولات ومخرج الأبطال:

في مساء ذات يوم من بضع سنين دخلت حديقة كراتشي العامة، وكان الظلام قد دب في الفضاء وأسدل أثوابه السود الرقيقة في الأرجاء وإذا بي أسمع صوت عجوز هندية تقول بلسان عربي: اللهم صلِّ على سيدنا ومولانا محمد. فخشع قلبي، واعترتني قشعريرة سرت في جسمي كموجة الكهرباء، وقلت في نفسي: بعد أربعة

عشر قرنًا، وعلى آلاف الأميال من الحجاز، وفي هذه البلاد التي طالما عبد أهلها الأصنام وقدسوا الحيوان، في هذه البلاد الأعجمية اللسان، يرتفع اسم محمد ﷺ ويدوي في الفضاء! ما هذه العظمة التي دونها كل عظمة! تنفق الأمم اليوم الأموال الوفيرة وتسخر الرجال في سبيل الدعاية، ثم لا تحصل على نتائج تذكر بالنسبة إلى هذه النتيجة التي حصلت، على بعد الزمان والمكان؛ هل في الدنيا اليوم أحد لم يصل إليه هذا الاسم العظيم الجميل؟ وسواء آمن به أم لم يؤمن، فإنه لا بد أن يبعث في نفسه التعظيم أو الإعجاب أو الحب.

لم يعرف تاريخ العرب فترة خصبة بأنواع البطولات كهذه الفترة التي أعقبت قيام محمد بن عبد الله ﷺ بتبليغ رسالته، ولم يعرف العرب عهدًا وزعوا فيه على العالم البطولات وكانوا قدوة للآخرين فتخرج على غرارهم أبطال من شتى الأمم كهذا العهد الذي تلى نهوض محمد بن عبد الله ﷺ برسالته.

لقد غدت الجزيرة العربية، ولا سيما الحجاز، في عهد الرسالة مدرسة للبطولات ومنبتًا للأبطال والعظماء، تخرج منها أبطال عالميون انتشروا في الأرض وشقوا في الحياة طرقًا جديدة تسير فيها الأجيال.

لقد غدت الجزيرة العربية مدرسة لتخريج الأبطال من كل قوم وجنس، وكان للعرب الشرف في أن أقيمت هذه المدرسة في أرضهم وبيئتهم واتخذت لغتهم لغة لها.

إن باني مدرسة البطولات الخالدة ومخرج الأبطال في حياته وبعد انتقاله هو ذاك الذي كان في مرتبة فوق البطولات وفي قمة لا ترقى إليها نفس بشرية، هو محمد بن عبد الله ﷺ. لقد أنشأ الرسول العظيم جيلًا من الأبطال والعظماء، وفي عصر لم تكن فيه المواصلات ميسورة، ولا وسائل الانتقال والسفر موفورة ولا

سريعة، استطاع تلاميذ محمد أن يفتحوا من البلاد، في فترة قصيرة جدًا، وأن يحرروا من العباد، في الشام والعراق ومصر وفارس والهند، ما يعتبر تحرير قسم صغير منه اليوم من العدو الغاصب، وتوحيد شطر منه تحت راية واحدة، بطولة ما فوقها بطولة. إن أقصى ما يبلغه العظيم منا اليوم، الجدير بإعجابنا وإكبارنا، أن يكون متبعًا لخطى تلاميذ محمد العظماء، وأن يكون تلميذًا بارًّا ناجحًا من تلاميذ الرسول العظيم عليه صلوات الله.

فهل تجد في تاريخ العرب قديمه وحديثه من ترك للعرب في العالم ذكرًا يقرن بالخير والتقدم والمثل العليا كما ترك ابن عبد الله؟ فكل أبطال التاريخ العربي من قادة وفاتحين، ومصلحين ومجددين، ومحررين ومنقذين، ليسوا إلا أتباعًا وتلاميذ، ومقلدين مقتدين، وآخذين بطرف أو ناحية من نواحي عظمته، وناهلين من ينبوعه الثّرِّ الفياض.

وهل عرف الناس في تاريخ العالم إنسانًا ساواه في عمق أثره في نفوس البشر، وامتداده في بقاع الأرض، واستمراره خلال العصور، وفي سعة آفاق عظمته وتعدد مناحيها؟

لئن كانت رسالته قد بدأت بقومه فقد تجاوزتهم إلى أمم الأرض وإلى أفق الإنسانية الرحب، ولئن ظهرت رسالته في عصره فإنها لم تقف عنده بل تجاوزته إلى العصور المتوالية من بعده، وقد مضت القرون وأثر هذه الرسالة لا يزال مستمرًا خالدًا.

ولئن كانت نقطة الانطلاق في رسالته إصلاح النفس وتطهيرها، فإن خطة الإصلاح لم تقف هناك، بل تجاوزتها إلى إصلاح المجتمع، بأسرته وروابطه، بنظام اقتصاده وطريقة حكمه وأساليب تربيته.

لم يعرف التاريخ رجلًا ترك هذا الأثر العالمي في شعوب الأرض وأممها، في تطهير معتقداتها، ورفع مستوى تفكيرها، وتحريرها من الخرافات والعبوديات، وإشعارها بكرامتها الإنسانية، وتكوين شعور إنساني أوسع من القبيلة الضيقة والقومية المغلقة والعصبية الخاصة، كذلك الأثر الواسع العميق المستمر الذي تركه النبي ﷺ.

لهذا فلا مجال للمقارنة بينه وبين أية شخصية عربية أو غير عربية في كل زمان ومكان، ولا يجوز الموازنة والمقايسة بينه وبين غيره من رجالات العرب أو الأمم الأخرى مهما جلوا وعظموا. لقد أقام الله منه شاهدًا على العرب يشهد بحملهم للرسالة وتبليغهم للأمانة، كما أقام من العرب شهداء على الناس ليعرفوا انصياعهم للحق وصدودهم عن الباطل ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٨].

فلئن كان الخطاب الأول لعشيرته ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وإنذاره لقومه ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [القصص:٤٦] فإن رسالته عامة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

إن عظمة محمد ﷺ ليست نبوغًا شخصيًّا أو تميزًا بالمواهب والخصائص فحسب، ولكنها أيضًا اصطفاء من الله واختيار منه لرسوله، إنها فوق العظمات الدنيوية والبطولات الأرضية، إنها رسالة من السماء ونبوة، والنبوة في العربية من الارتفاع والسمو، من نبا الشيء إذا ارتفع، أو من الإخبار بما وراء هذا الوجود الظاهر من النبأ وهو الخبر، إنها النبوة التي كانت ينبوعًا تنهل منه البطولات، والرسالة التي كانت مصدرًا للعظمات وسببًا للرفعة والذكر.

إنها خالدة لأنها من صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى، ولأنها صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، ليست من صنع عقل متحول ولا من إبداع فيلسوف تبلى فلسفته، ولا نتيجة عبقرية تمضي مع زمانها، إنها اصطفاء من الله، واتصال بين الخالق المقتدر العليم ونفس مختارة ارتفعت إلى أعلى ذرى البشرية وقممها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

وإذا كان الناس في مشارق الأرض ومغاربها يرددون اسم محمد مترنمين، يجلّونه في قلوبهم ويكبرونه بعقولهم، فمن أولى من العرب بإعلاء ذكره، والتغني بحبه، والتأسي بسيرته، والتمثل بمبادئه وتعاليمه وتصديقه في قوله.

فعليك يا محمد صلوات من ربك وتحيات من قومك، وإلى دعوتك ترنو أبصار الإنسانية المعذبة وترتفع أصواتها المختنقة بالعبرات، لتحررها وتفك أغلالها وتحل قيودها لتنطلق بعقولها وقلوبها نحو الله في آفاق كونه الرحيب.

منطقة الثقافة العربية في العالم

إن أهم مزايا الأمة العربية أن شخصيتها من الناحية الثقافية تتجاوز حدود أرضها وأبنائها إلى رقعة واسعة من العالم، وأنها حملت إلى الناس ثقافة إنسانية تلقفتها شعوب كثيرة وتأثرت بها أمم وأجيال. فالثقافة العربية لا تزال حتى اليوم مصدرًا واصلًا لثقافات كثير من الأمم اتخذت من العربية مصدرًا لإغناء لغاتها واستعملت حروفها، واتخذت تاريخها تاريخًا لها تستوحي منه القيم والمقاييس، ومن الكتاب العربي المبين أساسًا لعقيدتها وتفكيرها. فماذا تشغل هذه الثقافة العربية اليوم من العالم وأي موقع لها في العصر الحديث؟

إن العالم ينقسم اليوم إلى مناطق ثقافية، كما يقسم إلى قارات وألوان وأقوام؛ والمنطقة الثقافية تشمل في الغالب عددًا من الشعوب والأمم؛ ويسود كل نوع من الثقافات والعقليات رقعة من الأرض تتسع كثيرًا أو قليلًا. ففي العالم اليوم ثقافة غربية يمكن أن تنقسم كذلك إلى (سكسونية)، وتعم الولايات المتحدة وانكلترا وشعوبًا أخرى في الغرب والشرق، و(لاتينية) وتشمل فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وأمريكا الجنوبية، و(جرمنية) وتعم ألمانيا والنمسا وبعض البلاد المجاورة لها؛ وقد عرف العالم الذي تسود فيه هذه الثقافة بالعالم الديمقراطي الغربي.

وفي العالم اليوم ثقافة اشتراكيّة، تختلف بمقاييسها الفكرية، ونظمها الاقتصادية، وقيمها الخلقية، ومفاهيمها الفنية والأدبية عن الثقافة الغربية؛ وقد انتشرت هذه الثقافة في القرن الأخير في رقعة واسعة من الأرض، واتخذتها شعوب

وأمم ثقافة لها؛ وتحمل دولة الاتحاد السوفييتي المؤلفة من عدد من الأقوام والشعوب لواء هذه الثقافة.

وفي آسيا ثقافة شرقية تلتقي فيها ديانات وتعاليم وثنية المظاهر والشعائر ذات اتجاهات روحية وأخلاقية متقاربة كالبوذية والبرهمية وغيرها، وقد أطلقنا على هذه التعاليم والمبادئ التي لا تؤلف في الحقيقة وحدة متماسكة اسمًا واحدًا هو الثقافة الشرقية تجوّزًا لتشابه أجزاء هذا العالم الشرقي بالنسبة إلى العوالم الأخرى.

إلى جانب هذه المناطق الثقافية، منطقة ثقافية واسعة الرقعة، متميزة الشخصية، واضحة المعالم، هي منطقة الثقافة الإسلامية التي قوامها وأساسها الثقافة العربية، وهي منطقة تشمل شعوب العالم الإسلامي، ويقع معظمها في قارتي آسيا وإفريقيا، في موقع متوسط بين الشرق الأقصى من جهة وأوروبا وأمريكا والغرب من جهة أخرى. وللأمة العربية الفخر بأن تكون حاملة لواء هذه الثقافة ومنبعها الأول، وأن تكون لغتها هي اللغة الأساسية المعتمدة فيها.

وتمتاز الثقافة العربية بالنسبة للثقافات الأخرى بأنها ثقافة محررة، فإنها كانت وسيلة لتحرير الشعوب من الخرافات والوثنيات والعصبيات والمظالم وطريقًا إلى إيقاظ الوعي في الشعوب. أما الثقافات الأخرى فقد اقترن دخول بعضها إلى البلاد التي دخلتها بالاستعمار، وكانت الثورات التحررية الاستقلالية ثورة على هذه الثقافة نفسها. واقترن بعضها الآخر بنظام معين للحكم، فرض تلك الثقافة على البلاد التي أقيم فيها. ولذلك فإن الثقافة العربية لم تذهب بذهاب سلطان العرب من البلاد التي ساسوها، ولا زالت بزوال نظام معين من أنظمة الحكم، بل بقيت مستمرة متجددة، لأن لها قيمتها الذاتية، ولأنها إنسانية في قيمها ومبادئها، قابلة للتعميم على شعوب الأرض.

إن حدود دائرة هذه الثقافة العربية هي حدود العالم الإسلامي؛ وتشمل تلك الشعوب التي اتخذت من كتاب الله الذي نزل بلسان عربي مبين أساسًا لعقائدها وتفكيرها وثقافتها. والقاعدة الأساسية التي استقرت عليها وشاعت وانتشرت منها تلك الثقافة هي البلاد العربية وشعبها الممتد من أقصى العراق إلى أقصى مراكش ومن شمال سورية إلى جنوب الجزيرة العربية. ومن هذه الشعوب من دخل في إطار هذه الثقافة بمجموعه أو كثرته الغالبة كالأفغان والإندونيسيين والملايويين والأتراك والإيرانيين والألبانيين، ومئة مليون ونيف من سكان القارة الهندية، التي انشطرت إلى باكستان، وفيها الكثرة من المسلمين، والهند وفيها نحو أربعين مليونًا منهم؛ أضف إلى هؤلاء جميعًا ملايين من الأقليات الإسلامية المتفرقين في أنحاء الأرض، ولا سيما في بلاد آسيا وأوروبا وإفريقيا كالفليبين وبورما وسيلان ويوغوسلافيا واليونان.

وليست هذه الشعوب والأمم على درجة واحدة في التأثر بالثقافة العربية، والأخذ بها والمساهمة فيها؛ فإنك تجد في باكستان والهند مثلًا من يعيشون في جو الثقافة العربية، وتجد فيهما من المدارس والمعاهد والمؤسسات والحلقات والمكاتب ودور النشر ما يجعلك تعتقد أنك في جو عربي خالص.

لقد زرت مع زملاء لي[١] بعض بلاد آسيا فوجدنا شواهد رائعة تثبت أن هذه الثقافة حية نشيطة. ففي كراتشي معاهد منها المدرسة العربية الإسلامية وفيها يدرس الحديث والتفسير واللغة العربية بنحوها وأدبها باللغة العربية ويقوم عليها علماء

(١) كان ذلك في أواخر عام ١٩٥٧ وأوائل عام ١٩٥٨ لحضور الندوة العالمية للدراسات الإسلامية التي انعقدت في لاهور، وللقيام برحلة في آسيا بتكليف من وزارة الخارجية السورية يومئذ. وكان الوفد في هذه الرحلة مؤلَّفًا من الأستاذ عمر أبي ريشة، والأستاذ نهاد قاسم، والدكتور أحمد السمان. (المؤلف).

أجلاء. وزرنا في لاهور عالمًا جليلًا له من المؤلفات في اللغة العربية ما يزيد على عشرين مجلدًا، وهو ينظم الشعر بالعربية، وفيها مدرسة لأهل الحديث نشرت كثيرًا من كتب الحديث، كما شاهدنا مدرسة للبنات في ضواحي لاهور فيها ألفا طالبة يقرأن القرآن وينشدن الأناشيد العربية ويتبعن في حركات الرياضة الإيعازات باللغة العربية، وأصغينا إلى خطيب مفوه يخطب بالعربية في شاه مسجد في لاهور مؤيدًا سياسة الحياد التي تتبعها البلاد العربية المتحررة من نفوذ الاستعمار، مستنكرًا سياسة الحكام المتعاونين مع الغرب، ووصفهم بأنهم لا يمثلون إرادة الشعب.

وشاهدنا كذلك في الهند علماء أجلاء من القليل في حقهم أن يقال: إنهم يجيدون العربية، فمن بينهم شارح المعلقات السبع بالعربية والأوردية؛ ومنهم المؤلفون في تفسير القرآن وفي غير ذلك من المواضيع اللغوية والعلمية. وفي الهند معاهد إسلامية كبيرة كندوة العلماء التي ينسب إليها عدد كبير من العلماء والمؤلفين، ودار العلوم وندوة المصنفين للتأليف والنشر وجمعية علماء الهند، وغيرها من المؤسسات والمعاهد؛ وقد اجتمعنا بعالم جليل ألف في السيرة مؤلفًا بالعربية على نمط جديد مبتكر.

ولو ذهبت شطر بلاد الأفغان لوجدت أنه مهما حصل من التجديد في التعليم والثقافة فإن الثقافة الإسلامية تبقى قوام ثقافتهم وأساس تعليمهم، وفي أندونيسيا يكثر المتعلمون للعربية المجيدون للكلام والكتابة فيها، وفيها معاهد إسلامية عالية عديدة على أساس الثقافة واللغة العربية وفيها ما هو خاص بالبنات.

ولو ذهبت إلى بلد كيوغسلافيا فيه أقلية من المسلمين لوجدت ما لا يخطر ببالك، وقد أهداني أستاذ في بعض جامعاتها كتابا باللغة العربية ألفه مؤلفه بعد الحرب العالمية الأولى، وهو يوغسلافي من البوسنة يتضمن تراجم علماء المسلمين

اليوغسلافيين وأدبائهم واسمه "الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء البوسنة" وهو مطبوع بمصر. وفي يوغسلافيا حتى الآن مدارس تعلم العربية والدين لتخريج الأئمة والخطباء. ولسنا الآن بصدد استعراض مراكز الثقافة العربية في العالم الإسلامي ولكننا ذكرنا ما ذكرناه على سبيل الاستشهاد.

إن للثقافة العربية المنتشرة في أنحاء العالم وشعوب العالم عناصر أساسية لا بد منها، أولها: **القرآن الكريم** ولا تقتصر دراسة الكتاب الكريم على حفظه وتلاوته أو على كونه مادة أساسية لإقامة الشعائر؛ فإن أثره الفكري واضح في البلاد الإسلامية، فهو يقرأ في العربية ويقرأ مترجما مفسرًا بشتى اللغات، وهو مصدر للمفاهيم والأفكار والمعتقدات، وقد تأثر به العامة والخاصة من أبناء الشعوب الإسلامية، ونهل منه الشعراء والمفكرون واعتبروا أنفسهم عربًا في التفكير، وإن كانوا أعاجم في التعبير، وفي هذا المعنى يقول إقبال ما ترجمه الصاوي الشعلان إلى العربية بقوله:

أنا أعجمي الدَّنِّ لكن خمرتي ❊ صُنع الحجاز وروضِها الفينانِ
إن كان لي نغمُ الهنود ولحنهم ❊ لكنَّ هذا الصوت من عدنانِ

ولا تزال الشعوب تقبل على تفسيره في لغاتهم ونقله بالمعنى إليها، كما تفعل اليوم جمعية أنشئت لهذا الغرض في بورما يرأسها السيد رشيد أحد الوزراء الحاليين في حكومتها، على أن العناية بحفظ القرآن بنصه العربي شديدة في العالم الإسلامي، وقد لقينا ولدًا لأحد علماء الباكستان يحفظ القرآن عن ظهر قلب مع تجويده وعمره ثلاث عشرة سنة، كما لقينا رجلًا غنيًّا خصص من أمواله أربعمئة ألف روبية لتزويج حفاظ القرآن.

ومن عناصر الثقافة العربية: اللغة العربية بشعرها ونثرها وقواعدها ومفرداتها، فهي موضع عناية ودراسة في جميع أقطار الأرض، وخاصة في الهند والباكستان

والأفغان وأندونيسيا، وقد أثرت مفرداتها في جميع لغات الشعوب الإسلامية على تفاوت بينها، وقد اتخذوا منها أصلًا يستمدون منه ما يحتاجون إليه من الألفاظ للتعبير عن المعاني الجديدة، ففي الأوردية والفارسية والتركية ألفاظ عربية كثيرة جدًّا، كما أن بعض هذه الشعوب اتخذت الحروف العربية لكتابة لغتها، فسهل عليها بذلك تعلم العربية كالأوردية والملايوية والفارسية.

ومن عناصر الثقافة العربية التاريخ، فإن التاريخ يدرس في الشعوب الإسلامية من وجهة النظر نفسها التي تنظر منها الأمة العربية، وبالمقاييس والمفاهيم نفسها، فتأخذ منه المثل العليا والقدوة الصالحة، وتنظر الى شخصياته وعصوره بالنظرة نفسها، وفي هذا ما فيه من توحيد الأفكار والأهداف والعواطف.

ومن عناصر الثقافة العربية التفسير والحديث والفقه وغيرها من العلوم الإسلامية. فهذه العناصر التي تؤلف بمجموعها الثقافة العربية هي أساس الثقافة في كثير من الأمم والشعوب، والكتب المؤلفة في هذه العلوم المختلفة، - ولا سيما المشهورة منها - هي المرجع الذي يرجعون اليه ويأخذون منه وتتكون من حولها ثقافة باللغات القومية المختلفة، تنهج المنهج نفسه وتنسجم مع الثقافة العربية.

إن هذه الثقافة العربية والإسلامية تكون عامل اتصال بين شعوب كثيرة، تتشابه في الكثير من أوضاعها العامة ومشكلاتها الاجتماعية، وتقف الأمة العربية موقف المعلم والدليل المرشد، وتنافس بذلك أقوى أمم الأرض وأوسعها نفوذًا في المجال الثقافي.

إن عالم الثقافة العربية وهو العالم الإسلامي هو المجال الحيوي الاجتماعي للأمة العربية، والصعيد الإنساني المشترك لأمم وشعوب كثيرة. وتحتل اللغة العربية

في هذه المنطقة الثقافية المنزلة الأولى، فهي اللغة المشتركة بين شعوبها. وتخلق هذه الثقافة العامة السائدة في هذا العالم روابط فكرية واتجاهات شعبية مشتركة، وتكون تقويتها وتوسيع دائرتها سببًا في إيقاظ هذه الشعوب وإكمال تحررها واستقلالها، وإسقاط الحكام المرتبطين بالأجانب والمستعمرين.

إن هذه المنطقة امتداد للشخصية العربية من الناحية الثقافية والفكرية وإن روابطنا بها كما قال الرئيس جمال عبد الناصر في فلسفة الثورة: "لا تقربها العقيدة الدينية فحسب وإنما تشدها حقائق التاريخ".

فلا يجوز للأمة العربية أن تتخلى عن مسؤولياتها، وأن تحل عرى روابط هي التي أوثقتها في عصور طويلة من التاريخ، لتقوم بواجبها في إسعاد نفسها وإسعاد الإنسانية وتحريرها، وإقامة حضارة تسير نحو الكمال في جميع آفاق الحياة.

معركة الجزائر

* معركة الجزائر وآفاقها:

لقد كنت أعلل ثورة الجزائر المستمرة حين كنت فتىً يافعًا بازدياد ضغط المستعمرين وبالحقد المتوارث جيلًا بعد جيل في أبناء الجزائر على باغ مغتصب. ولكن الحقيقة أبعد مدى مما كنت ظننت، والدوافع أعمق مما كان خيل إليّ؛ فإن المرء لا يستطيع أن يفسر توالي الثورات في الجزائر وبطولة المجاهدين وإصرارهم على إدراك النصر، وإصرار الفرنسيين وإمعانهم في جرائمهم وعنادهم، إلا إذا عرف خطورة هذه المعركة بالنسبة لنا ولهم: بالنسبة للمغرب وإفريقيا، وبالنسبة للعالم الإسلامي وحضارته، ولدول آسيا وإفريقيا الناهضة من جهة، وبالنسبة لعالم الاستعمار من جهة أخرى.

١ - إن في تحرير الجزائر من الاستعمار تحريرًا كاملًا للمغرب العربي كله، فإن مراكش وتونس وليبيا لا تزال واقعة تحت النفوذ، ولا يزال المستعمر يخدرها بأنواع من المخدرات ليبقي فيها نفوذه ويعللها باستقلال منقوص وسياسة مثلومة، وإن كان أهلها يسعون لبلوغ الاستقلال الكامل[١].

٢- أما بالنسبة لإفريقيا، فإن تحرير المغرب كله يؤثر تأثيرًا فعالًا حاسمًا في وضع إفريقيا. وإفريقيا هي المرجحة لإحدى كفتي الميزان، والصراع بين فكرة (أوروبا - إفريقيا) و(آسيا - إفريقيا) هو من أشد أنواع الصراع في هذا العصر، وإن

(١) وقد سارت هذه البلاد بخطى كبيرة نحو الاستقلال التام في جميع المرافق. (المؤلِّف).

انضمام شعوب إفريقيا إلى إخوانهم من شعوب آسيا يقضي نهائيًّا على الاستعمار ويغير خارطة العالم وحالته الاقتصادية.

وإذا تحرر المغرب العربي فإن له صلة وثيقة بالبلاد الواقعة في جنوبه، وفي هذه البلاد بعض الجاليات العربية الأصل، كبلاد تشاد، وقد اشتد أثر المغرب في تلك البلاد منذ القديم، فإن المغاربة نشروا الإسلام في الشعوب الإفريقية الذين أضحت بينهم وبين البلاد العربية رابطة وثيقة، وقد عمل الاستعمار لمقاومة هذا النفوذ عن طريق البعثات التبشيرية التي لا غرض لها إلا توطيد الاستعمار وهي أبعد ما تكون عن نشر رسالة المسيح السمحة رسالة الحب والإخاء.

إن استقلال المغرب العربي ونهوضه يؤدي حتمًا إلى إتمام الانسجام في شعوب إفريقيا واستعراب شعوبها عن طريق دخولها في الإسلام.

وإذا اجتمعت قوة المغرب العربي وقوة مصر في الشمال الإفريقي، القوة المادية والمعنوية، وتم الاتصال الطبيعي وزالت الحواجز المصطنعة فقد تم النصر نهائيًّا للعرب وشعوب الشرق، وزالت بذلك سيادة شعوب أوروبا، بل إن أوروبا تصبح في حالة خوف من هذه الكتلة المخيفة التي تتصل بما وراءها من العالم العربي والإسلامي والشرقي، ولا ننسى ما في المنطقة من ثروات اقتصادية ضخمة.

٣- إن هذا الوضع بالنسبة للأمة العربية يقيم أساسًا متينًا من الاستقرار. فإن المغرب العربي والشمال الإفريقي يكون الجدار الغربي بالنسبة للأمة العربية، فالمغرب هو الحد الفاصل بين الشرق والغرب، وهو خط الدفاع الأول، خط المرابطة على الحدود سواء من الوجهة المادية والمعنوية.

لقد كان لهذا الخط تاريخ في التقدم والانحسار يمثل تاريخ العرب والحضارة الإسلامية تقدمًا وتأخراً.

لقد كان المغرب نقطة التقاء نوعين من الأمم والحضارات. فلقد وصلت الموجة العربية تحمل مبادئ العدالة والهدى والعلم في رسالة الإسلام إلى أواسط فرنسا، ثم استقرت حقبة من الزمن في إسبانيا فخلفت علمًا وحضارة، ثم انحسرت مرة أخرى إلى المغرب حيث استقرت وألقت بحرانها، وأصبح المغرب الوارث لملك العرب وحضارة الإسلام وثقافته في مقابل الغرب وارث الرومان في روحه وحضارته، الغرب الوثني في روحه، المادي في حضارته، ولو اتخذ من مسوح النصرانية شعارًا ولكنه كان أعجز من أن يفهم - وهو الوثني - رسالة المسيح وروح النصرانية، ولذلك كانت الحقيقة أن الروم الذين قاتلوا العرب في اليرموك والقسطنطينية هم الروم الذين قاتلوهم في إسبانيا ثم في المغرب وقاتلت حضارتهم المادية ونفعيتهم الاستعمارية البعيدة عن المسيحية، حضارة الروح المتمثلة في الإسلام، الخلف الحقيقي للمسيحية.

إن انتصار ثورة الجزائر هو انتصار للعرب وللحضارة التي تحمل طابعهم ويحملون طابعها.

لقد كانت بيننا وبين الروم موجات من الكر والفر:

انتصرنا في اليرموك والقسطنطينية وفي شمال إفريقيا وإسبانيا. ثم انحسرنا عن إسبانيا، وهجم الروم علينا في أرض المغرب وحكموها هذا القرن الماضي، والآن وقد زالت دولتهم ونهضنا بعد كبوة ستكون لنا الكرة عليهم، وليست كل هذه المعارك إلا معركة واحدة متصلة بين العرب والروم.

أما نحن فقد شدنا في بلادهم، في إسبانيا معاهد وجامعات، ونشرنا علمًا وأدبًا، وخلّفنا ثقافة وفنًّا، وأقمنا عدلًا، وحمينا المعابد والكنائس، ودافعنا عن الحق والحرية والأخلاق، وأما هم في جميع المراحل فقد نشروا الفقر والخراب والجهل والظلم وهدموا الجوامع ودافعوا عن الباطل والرذيلة والإجرام.

٤- إن الشمال الإفريقي بالنسبة إلينا نقطة انطلاق وقاعدة استقرار لا لإطلاق الصواريخ وتخريب المدن، بل نقطة انطلاق للتحرير والتمدين وإشعاع الحضارة ونشر الرسالة وإقرار دعائم السلام الحقيقي، وبذلك نعطي دول آسيا وإفريقيا الناهضة ضد الاستعمار نموذجًا حيًّا ومثالًا لخذلان الاستعمار، ومشجعًا على المضي في طريق التحرر الكامل لجميع هذه البلدان، ونقيم بينها وبين أوروبا وأمريكا الاستعماريتين خطًّا فاصلًا وحاجزًا منيعًا، ولذلك كان من واجب هذه الشعوب جميعًا على اختلاف جنسياتها وأديانها أن تناصر ثورة الجزائر لأنها قوة لها وإضعاف لأعدائها، وفي انتصارها كسب كبير لقضاياها الحاضرة وضمان لمستقبلها.

٥- ولهذه المعاني كلها بالذات تحرص دول الاستعمار على كسب معركة الجزائر لأن في انتصار ثورتها سقوط أكبر حصن من حصون الاستعمار وانهيار أضخم قاعدة من قواعده، وخذلانًا لمبدأ الاستعمار من أساسه، ولهذا نجد جميع الدول الاستعمارية تتظاهر وتتعاون مع فرنسا في هذه الحرب المجرمة الأثيمة، فنرجو الله أن يكون انتصار ثورة الجزائر قضاء عليها جميعًا، وهذا ما يجعل من واجب الشعوب الحرة وجميع الذين يكرهون الظلم والاستعباد أن يكونوا في جانب الحق وأن يناصروا ثورة الجزائر في المجالات الدولية وغيرها، لأن فيها انتصارًا للحق وقضاء على الظلم وتقدمًا نحو الأمن والسلام العالمي. ولقد امتازت ثورة الجزائر بأنها ليست ثورة زعماء أو أحزاب بل ثورة شعب كامل تحمل المآسي وحقد

على الإجرام والظلم وهب ليثأر لنفسه ولكرامته وللحق وللإنسانية ولم يكن له إلا إيمانه بالله وعزيمته ومضاؤه سلاحًا في المعركة، فكانت دوافع الثورة داخلية وكانت بعيدة عن أي دولة من الدول الأجنبية.

إن في انتصار ثورة الجزائر انتصارًا للعرب وللشعوب الإسلامية، بل لجميع شعوب الشرق المضطهد المستعمر، وللإسلام وحضارته، وللإنسانية وأمنها وسلامها.

فهرس الموضوعات العامة